

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف - ميلة -

قسم اللغة والأدب العربي

معهد الآداب واللغات

المرجع:.....

الأنساق الأنثروبولوجية في رواية
"شجرة مريم" لسامية بن دريس

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إشراف الأستاذ:

* يوسف بن جامع

إعداد الطالبتين:

❖ فنغور سمية

❖ مهنأوي أحلام

السنة الجامعية 2022-2023



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شكر وعرفان

نحمد الله حمد الشاكرين، ونحمدك ربي على توفيقك لنا، ومدنا بالقوة والعزم لإنهاء هذا العمل المتواضع.

افتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: "من لو يشكر الناس لو يشكر الله" صدق رسول الله، نتقدم بالشكر الجزيل والفضل الكبير للوالدين الكريمين.

ونتقدم بشكرنا الجزيل إلى كل من قدم لنا يد العون من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع ولو بنصيحة، ونخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور بن جامع يوسف لما قدمه لنا من توجيهات ونصائح قيمة فله خالص الاحترام والتقدير.

ولا يفوتنا أن نتقدم بفائق التقدير وجميل العرفان لكل الأساتذة الكرام الذين أفاضوا علينا من علمهم ولو يبخلوا علينا بمجهودهم في سبيل طلب العلم.

فجزاكم الله عنا جميعا خير الجزاء.



مقدمة

تتخر ساحة النقد العربي بالكثير من المصطلحات المعرفية المختلفة، والتي خدمت الظاهرة الأدبية على مر العصور حيث ساهمت في تطوير وانفتاح مجالات النقد المختلفة من بينها الأنثروبولوجيا، الأنساق الثقافية، والنقد الأسطوري...إلخ.

فالأنثروبولوجيا تبحث في تجليات الثقافة القديمة في حياة الانسان المعاصر وتساهم في نسج مخيلاته الفكرية.

وقد اختلف النقاد حول ظهورها، حتى توصلوا في الأخير بأنها لم تظهر حتى نهاية القرن التاسع عشر، دراسة لثقافة الانسان من شتى جوانبه من أمثال وعادات وتقاليد ولغة شعبه وعلاقته مع الآخرين.

وهذا ما نجده في هذا العمل الفني الذي حاولت الكاتبة فيه الكشف عن هذه الأنساق الثقافية وإبرازها من خلال تصوير ثقافة قرية "كاف الحمام" وتبيين أهم العادات والتقاليد التي تميزهم عن باقي المجتمعات.

وبناء على ما سبق ارتأينا أن نتناول في بحثنا هذا دراسة الأنساق الأنثروبولوجيا في رواية شجرة مريم لسامية بن دريس، والتي كانت متشعبة بها بمعنى الكلمة. الأمر الذي جعلنا وحفزنا للاندفاع أكثر في هذه الرواية واستخراج أهم الأنساق التي احتوتها.

وقد اخترنا هذا الموضوع وفق أسباب ودواعي ذاتية وموضوعية نذكرها:

- قيمة الموضوع بحد ذاته.

- قلة الدراسات حول العنوان.

ولدراسة هذا الموضوع قمنا بطرح اشكالية أساسية هي: وما هو مدلول العنوان؟ كيف تجلت مظاهر الأنساق الأنثروبولوجيا في رواية شجرة مريم؟ وما علاقة الفصول بالعناصر الأربعة؟ وما الأنساق الأخرى المستخدمة في الرواية؟

أما المنهج الذي اقتضته الدراسة فهو "النقد الأسطوري" كون أن هذه الدراسة ارتبطت بالأساطير القديمة.

قسمنا هذا البحث الى مقدمة وفصلين مزجنا فيهما بين النظري والتطبيقي، ثم خاتمة وملحق. الفصل الأول تحدثنا فيه عن علاقة فصول السنة بعناصر الحياة الأربعة، جاء فيه أربعة مباحث:

أ- الخريف والتراب.

ب- الصيف والنار.

ج- الشتاء والماء.

د- الربيع والهواء.

لنطبق على الرواية مباشرة، أما في الفصل الثاني قمنا بتقسيمه إلى ست مباحث نذكرها:

_ سيميائية العنوان.

- سيميائية العناوين الداخلية (الفرعية).

- دراسة غلاف الرواية.

- الأمثال الشعبية.

- العادات والمعتقدات.

- الأغاني الشعبية.

وفي الأخير وضعنا خاتمة، أوضحنا فيها أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها من خلال دراستنا، ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدناها في هذا البحث نذكر المصدر الأساسي المتمثل في رواية شجرة مريم، وبعضاً من المراجع والتي تمثلت في كتب لغاستون باشلار:

- "النار في التحليل النفسي".

- "كتاب الأرض وأحلام يقظة الراحة".

- "كتاب تشريح النقد" لنورثروب فراي.

وبحثنا كأى بحث آخر وواجهنا فيه بعضاً من الصعوبات نذكر منها قلة الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، تناثر المعلومات، وضيق الوقت.

في النهاية نتقدم بجزيل الشكر للأستاذ المشرف "يوسف بن جامع" الذي كان له الدور البالغ في دراسة هذا الموضوع خطوة بخطوة ولم يبخل علينا بأي معلومة كانت.

كما نتمنى في الأخير أن نكون قد وفقنا في هذا العمل في طرحه بألية وشكل منهجي صحيح، ولا ندعي أنه كامل على أتم وجه وأنه خالص من الأخطاء والنقائص، فالإنسان بطبعه خطأ والكمال لله عز وجل.

الفصل الأول:

الأنساق الأنتربولوجية بين

العناصر الأربعة والفصول:

أولا: الخريف عصر التراب

ثانيا: الصيف عصر النار

ثالثا: الشتاء عصر الماء

رابعا: الربيع عصر الهواء

تمهيد:

بعد قراءتنا لرواية شجرة مريم، أثار انتباهنا المزج الذي تطرقت إليه الكاتبة في إحدى عناوين فصولها، فقد ربطت بين فلسفتين فلسفة الناقد الفرنسي "غاستون باشلار Gaston Bachlard"*، وفلسفة "نورثروب فراي Northrop frye"*، القائمة على العناصر الأربعة وفصول السنة (الشتاء عصر الماء، الخريف عصر التراب، الصيف عصر النار، الربيع عصر الهواء).

لقد حظيت هذه العناصر بدراسات عديدة من قبل نقاد وفلاسفة وكيميائيين من أمثال أرسطو وأمبادوقليس... الخ، فقد فسروها بمعارف عديدة وقراءات متنوعة، إلا أن معرفتهم ظلت مصحوبة بالأخطاء والأحكام الغير منطقية وعجزهم عن تبني أفكار جديدة وأبعاد موضوعية هادفة لهذه العناصر، حتى جاء الفيلسوف الفرنسي "غاستون باشلار Gaston Bachlard"، الذي أصاب تقييمها ووضع لها رمزيات منطقية تفسرها، وقد قسمها إلى أربعة "الماء، النار، التراب، الهواء" واعتبر أن الكون لم يأخذ هذا الإرتباط والإنسجام الجميل من فراغ بل من تأثير هذه العناصر وتأثرها ببعضها البعض.

وهكذا هو الحال عند "نورثروب فراي" الذي نظم جزءا لهاته الفصول في كتابه الشهير - تشريح النقد - "Anatomy of cristicism" حيث ربطها بأساطير قديمة تفسرها وترمز لها سنتطرق لها في هذه الدراسة.

* غاستون باشلار Gaston Bachlard: هو فيلسوف فرنسي، وأحد أهم الفلاسفة الفرنسيين، ولد عام 27 يونيو 1884، درس بجامعة باريس، وهناك من يقول أنه أعظم فيلسوف ظاهري وأكثرهم عصرية أيضا، فقد كرس جزءا كبيرا من حياته وعمله لفلسفة العلوم وقدم أفكارا متميزة في مجال الاستمولوجيا.

* نورثروب فراي Northrop frye: ناقد ومنظر أدبي كندي، ولد عام 14 يوليو 1912، زميل الجمعية الملكية الكندية وحاصل على وسام كندا، درس في جامعة تورنتو، ويعد أحد أكثر الكتاب تأثيرا في القرن العشرين، أكسبه كتابه "التناسق المخيف" شهرة عالمية.

أولاً: الخريف عصر التراب:

إن الأرض هي رمز الثبات والاستقرار، وهي بمثابة المسكن الوحيد لجميع المخلوقات، ونقطة ارتكاز الكون، ورمز العطاء والوفرة، فالأرض هي الأم لأنها تعتني بالإنسان وتهتم بإطعامه فلا يجوع أبداً لوفرة الطعام وما تقدمه من الخيرات حتى أنها في الأساطير القديمة تتمثل في شخصية الأنتى يقول "نورثروب فراي" في هذا "تكون الأرض التي تنتج البعث في الشعائر والأساطير شخصية أنثوية عادة"¹، لأنها تقوم بدور الأم فمن رحمها خلق الإنسان والنباتات ومنها يتغذى ويُنتج، كما أنها تعد مصدر التقاء وامتزاج العناصر الأخرى من ماء ونار وهواء، ولاننسى أن التراب هو المادة الأولية الذي صنع الله تعالى بها الإنسان وخلقه في أحسن تقويم، لهذا سنركز في هذا الجزء على عنصر التراب ونتعرف عن رمزته الإيحائية.

أ/ عنصر التراب:

منذ طفولتنا ونحن نسمع أن الإنسان خلق من تراب، وهي أحد الأمور المتعلقة بالخلق والولادة، فجاء القرآن الكريم ليخبرنا حقيقة الخلق وأكد للبشرية أن أول خلق الله هو سيدنا آدم عليه السلام وفصل في ذلك جاعلاً أن المادة الأساسية في هذه العملية هي التراب وقد عبر عليه بالتراب تارة في قوله: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ۖ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"² وبالطين تارة أخرى في قوله تعالى: "وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ"³، وهذا ما أكدته لنا الدراسات العلمية أن جسم الإنسان يحتوي على 15% من الرمل، و55% من الطين، و50% من الصلصال وهذا ما يفسر اختلاف لون بشرة الإنسان أسود وأبيض وأحمر... الخ.

¹ نورثروب فراي، تشريح النقد، محاولات أربع، تر: د. محمد عصفور، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ط1، 1991، ص 235.

² سورة آل عمران، الآية، 59.

³ سورة السجدة، الآية 7.

كما أنه جاء ذكر خلق الإنسان من تراب في العديد من الآيات القرآنية كَرَدَّ عَلَى الْكُفَّارِ مَنكَرِي الْبَعْثِ إِذْ ذَكَرَهُمْ بِحَقِيقَةِ ضَعْفِ خَلْقِهِمْ فَكَيْفَ يَكْفُرُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَنْكُرُونَ مَرْدَهُمْ إِلَى اللَّهِ يَقُولُ اللَّهُ: " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا"¹ أي أن الإنسان مر بمراحل عديدة في تكوينه وخلقها وأن أول مرحلة مر بها هي المرحلة الترابية، فالله أمر جبريل أن يحضر له ترابا من الأرض، ثم مزجها بالماء وكون بشرا وهنا تكمن عظمة الله ودليل معجزته، فتحويل مواد خام بسيطة إلى إنسان يمشي ويسمع ويتحرك ليس بالأمر المستهان فسبحان الله على قدرته الجبارة.

وفكرة أن الإنسان خلق منه وإليه يعود تقول الكاتبة شيرين معتوق في إحدى مؤلفاتها "وجسد كل كائن حي يمثل التراب (من التراب وإلى التراب نعود)"² ، فالإنسان يُدْفَنُ فِي التُّرْبَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا وَهَذَا يَدْخُلُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فلا يوجد مكان آمن من غير التراب، ولكي لا تصبح الجثث مثل القمامات تُرمى على سطح الأرض فعززها الله تعالى بأن ترجع للمادة التي خلق منها، وهنا تكمن حكمة الله في تسييره.

كما لا ننكر في عهد الرسول (ص) أن التراب كان يستعمل للرقية ومعالجة الجروح والقروح، وكان إذا مرض أحدا ذهب إلى رسول الله (ص) فيقول لمريضه "بسم الله تربة أرضنا، بريقة بعضنا يشفى سقيما بإذن ربنا"³ ويقال أيضا في كتاب زاد المعاد "أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء فيمسح به على الجرح"⁴، ثم توارث هذه الثقافة أجدادنا إلى يومنا هذا واعتبروه دواء لكل داء، فكثيرا ما يعالجون أمراضهم بالطين

¹ سورة الكهف الآية 37.

² شيرين معتوق الحرازي، رؤية سيميولوجية لفن المنمنمات الإسلامية في ظل العناصر الكونية الأربعة، المجلة الأردنية، ع3، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية، ص263.

³ د. أروى عبد الرحمن أحمد، اعجاز الشفاء في الريق والتراب، جامعة صنعاء، كلية العلوم، www.eajaz.org.

⁴ ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 2009، ص 659.

والصلصال، وقيل أنه يمتص الأمراض السامة من جسد الإنسان، لأن هذا الأخير خُلق من تراب وهو ما يصلح ليتداوى ويتعالج منه.

فالأرض حسب الدراسات العلمية تتكون من أكثر من مئة عنصر، بينما لم يكتشف سوى 22 عنصراً في جسم الإنسان، وقد أشار لذلك القرآن في قوله: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ".

ومن المعروف أن عنصر التراب أو الأرض يتميز بالصلابة والخشونة، وعلى سبيل المثال لدينا الصخر فهو ينتمي إلى عنصر التراب، كذلك البيوت والمنازل أو الجذور التي تنبت وتخرج منه، فكل ما هو صلب ينتمي إلى رمزية الأرض، وقد اهتم بهذا العنصر وتحدث عنه الكثير من العلماء والفلاسفة منذ القدم أمثال: أمبادوقليس، غاستون باشلار، فيليب بول وغيرهم كثير:

نبدأ بالكاتب فيليب بول والذي يذكر في كتابه ويقول: "فالتراب لا يمثل التربة أو الصخور فحسب، بل يمثل كل المواد الصلبة"¹ وما يقصده هنا هو أنه تعبير عن مادة تتخذ أشكالاً مختلفة أو تتجسد عبر أو في هيئة أي شيء صلب وفي موضع آخر يقول: "فكانت المعادن - باستثناء الزئبق السائل - تعتبر ببساطة من أشكال عنصر التراب الأرسطي"²، والمبتغى وصوله من كل هذه الأقوال أنه قديماً اعتبرت أو صنفت المعادن من ذهب وفضة... إلخ وسميت عناصر، والتي نراها غريبة بعض الشيء اليوم، حتى جاءت النظرة البشارية الذي قسم عناصر الكون تقسيماً منطقياً واهتم بعنصر الأرض بشكل كبير، وعميق ليثبت أن عنصر الأرض يختلف عن العناصر الثلاثة المتبقية (الماء، الهواء، النار) في أنها تعد الأقرب من الإنسان، ويفسر هذه العلاقة أنها تربطهم علاقة حميمية أو قربها منه باعتبار المسكن الذي ينتمي إلى الأرض الفضاء الذي يلجأ إليه الإنسان بحثاً عن الحميمية والراحة أو العودة إلى فضاء أمومي "لقد اعتبر التحليل النفسي

¹ فيليب بول، العناصر، ترجمة أحمد شكل، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016، ص 19.

² المرجع نفسه، ص 20.

الكلاسيكي العودة إلى الوطن الأم، العودة إلى مسكن الولادة، مع كل الحلمية التي تقويها بمثابة عودة إلى الأم"¹

المسكن ينتمي إلى عنصر التراب أيضا ويرمز للحماية "لا بد من صفحات طويلة لعرض وعي أن يكون المرء محميا، ولنيسطه في كل خصائصه، وخلفياته، فالإحساسات الواضحة لا تحصى ولا تعد، ضد البرد، ضد الحر، ضد المطر، ضد العاصفة، المسكن هو لنا ملجأ مؤكد"² فخلاصة القول أن مفهوم الأرض عند غاستون باشلار يتمحور باعتباره فضاء يحتوى به وأنه مركز للاستجمام والراحة ورمز الطمأنينة وملجأ لكل إنسان.

ب/ الخريف:

لقد اهتم بهذا الفصل وتحدث عنه الكثير من القدماء في أساطيرهم لتفسير حلول فصل الخريف فلكل فصل من فصول السنة سماته وصفاته التي تميزه عن غيره من الفصول، كما لا ننكر جهود نورثروب فراي (Northrop frye) في كتابه "تشریح النقد" والذي يصف الخريف بـ "قصة الخريف: المأساة".³

وكما اقترن الخريف بفكرة الموت لدى الكثير من الناس قديما، ولعلنا سنتلمس كل هذا في جزء أو أسطورة من الأساطير الإغريقية وهي أسطورة أو قصة بيرسيفون والتي تعتبر تعبيرا عن فكرة الإنسان القديم لدورة الطبيعة وحركة الفصول، تقول الأسطورة أنه كانت هناك إلهة للزرع والأرض بكل ما فيها من خضرة ونبات تدعى ديميتر، هاته الإلهة كانت تملك بنتا جميلة تسمى بـ: بيرسيفون، إلا أنه كان هناك إله آخر "هاديس" والذي أعجب بابنتها اعجابا شديدا فقام باختطافها وأخذها معه إلى عالمه السفلي، عالم الشياطين تحت الأرض فتزوجها وجعلها ملكته،

¹ غاستون باشلار، الأرض وأحلام يقظة الراحة، بحث في صور الحميمية، ترجمة قيصر الجليدي، دائرة الثقافة والسياحة، أبوظبي ط1، 2018، ص 148.

² المرجع نفسه، ص 140.

³ نورثروب فراي، تشریح النقد: ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991، ص 265.

فحزنت أمها عليها حزنا شديدا، وهددتهم بتكريس حياتها للبحث عن ابنتها، وحدادا عليها حرمت الأرض من النبات حيث تقول الأسطورة: "نفذت الربة ديمتر تهديدها و وعيدها... توقفت الغابات عن النمو... فسدت البذور في باطن الأرض... ذبلت عيدان النباتات... جفت أغصان الأشجار... نفذ مخزون الغذاء لدى أفراد البشر"¹ وهنا يتمحور فصل الخريف بكل صفاته، فبسبب حزنها على ابنتها ساد القحط، وتوقفت النباتات والمحاصيل والزهور... إلخ عن الظهور، لكن بعد مرور البعض من الوقت صار اتفاق بينهما على أن تعود الإبنة إلى أمها، ومع عودتها عادت النباتات والزهور والمحاصيل بالظهور والرجوع وأشرقت الطبيعة كما كانت من قبل، وأن تزور زوجها في العالم لأربعة أشهر من السنة وهكذا أصبحت زيارة بريسيفون للعالم السفلي دلالة على قدوم أو حلول الخريف وتساقط الأوراق، وفور عودتها من هذا العالم إلى أرضها يأذن قدوم الربيع، هذه هي الأسطورة التي كان يفسر بها القدماء حلول فصل الخريف.

لعل العودة الآن إلى نورثروب فراي والذي يرى أن الطبيعة في السنة تقوم بدورة كاملة والتي تشكل أو تنقسم بدورها إلى أربعة فصول، لكل فصل خاصيته أو وظيفته أو بالأحرى الميثة الخاصة به كما ذكر في كتابه، وميثة الخريف عنده هي المأساة كما ذكرنا سابقا، وتتميز الأعمال المأساوية عادة بالتركيز على البطل الواحد" ولا بد أن يصح هذا الكلام حتى على الآلهة التي تتعرض للموت، وبروميثوس بوصفه إله لا يموت ولكنه يتعذب لقاء عطفه على البشر"² هذا الإله بروميثوس الذي تذوق جرعة كبيرة من الألم كما ذكر في الكتاب حيث يقال عنه: "والبطل في أمثال هذه المسرحية يعاني من العذاب والإذلال إلى حد لا يمكنه من الوقوف وقفة بطولية"³ لتنتهي الأسطورة ببروميثوس البطل المصلوب من أجل خلاص البشرية" ويرى بروميثوس

¹ عبد المعطى شعراوي، أساطير اغريقية، مكتبة الأنجلو المصرية، جزء 3، دون طبعة، القاهرة، 2005، ص 212.

² نورثروب فراي، تشریح النقد، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991، ص 267.

³ المرجع نفسه، ص 287.

المصلوب إن ذل التعويض ورعب الإحساس بأنه مراقب أفضع عنده من الألم" ¹ وهنا تكمن ثيمة الخريف عند فراي، والتي تحضن كل ما هو مأساوي وأليم وصرامة القوانين الطبيعية التي لا يستطيع البطل ولا يرغب في تغييرها.

ج- الخريف "عصر التراب في رواية شجرة مريم:

ملأت صفحات هذا الجزء بالموت والبكاء والحزن ومراسيم الدفن يجدر بنا تسميته بفصل الموت والأحزان والرحيل دون موعد "أكتوبر شهر الأحزان والكبت والرحيل والشرفات المغلقة والسنائر المسدلة والغضب أيضا"²، فقد صورت الكاتبة فيه مراسيم دفن الريم زهرة كاف الحمام التي كانت قصة وفاتها فاجعة حلت على أهل القرية خاصة، وأنها قُتلت جرّاء أحداث مجهولة، فالبعض يظن أنها قتلت نفسها لكن والدتها لم تصدق هذا الخبر وكانت على يقين أن زوج ابنتها اللئيم (صالح) هو من كان سبب في أخذ روح ابنتها المدللة، تقول "ابنتي لم تقتل نفسها، هناك حلوف بن حلوف قتلها، خنق زهرة شبابها..."³، فالكاتبة أبرزت عاطفة الحزن والفقدان في هذا الفصل، لتبين رمزية فصل الخريف تقول "فبرعت أزهار سوداء وحل خريف قائم على كامل حياتنا"⁴، ففصل الخريف لم يهشم اخضرار الطبيعة فقط، وإنما أسدل ستار عتمته وظلامه على قلوب البشر والتي صورت الكاتبة صورة الخريف على هيئة الأم زليخة التي هرم وجهها وضعف جسدها كأنها شجرة أفسدها فصل الخريف، وأسقط أوراق ضحكتها فتصفها ابنتها مريم بطلة الرواية "فجأة رأيت أمي - لم يحدث هذا من قبل- شجرة هرمة عارية الأوراق، سوداء الجذع والأغصان، جفّ حليبها وتيبست جذورها"⁵، ففي هذا القول شبهت الروائية الأم زليخة بشجرة كانت أوراقها

¹ نورثروب فراي، تشریح النقد، تر: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991، ص 287.

² سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 88.

³ المصدر نفسه، ص 81.

⁴ المصدر نفسه، ص 81.

⁵ المصدر نفسه، ص 81.

خضراء تعطي من خيراتها لأولادها وترعاهم وتعتني بهم، لكن عند حلول فصل الخريف وفقدان ابنتها الريم سقطت أوراقها وذبلت وبدى عليها الحزن، فبيست وجفت جذورها واسودت أغصانها.

وهكذا صورت الكاتبة معاناة المرأة الجزائرية العنف الممارس بشتى أشكاله عليها سواء أكان جسدياً أو نفسياً في فترة العشرية السوداء وبعدها مما تركته من آثار وخيمة في نفسها ونفوس كل الجزائريين، كل هاته الصفات من: حزن، مأساة، خوف، ألم، عنف، قتل، شؤم، ظلم، بكاء، موت، جنث أبرياء، دماء، جرحى، كبت، تعب، غضب، اكتئاب، مأساة، معاناة كلها لخصت قساوة هذا الفصل فصل الخريف عصر التراب أو الأجرر قوله عصر الموت.

ثانياً: الصيف عصر النار:

في هذا الفصل سنتطرق للكشف عن رمزية النار عند الناقد الفرنسي غاستون باشلار، والذي يعتبر أن روح الانسان والكائن الحي تمثل هذا العنصر، وفصل الصيف والعلاقة التي تصورها الكاتبة سامية بن دريس في روايتها.

أ- عنصر النار:

لقد عُرف غاستون باشلار منذ صغره بأنه مفتون بالنار بشكل كبير وغير طبيعي، فقد كان يقرأ على ضوء الشموع والمصابيح في قريته الصغيرة، ففور نضجه راح ليهتم بالنار ودلالاتها النفسية والفلسفية في الأساطير وفي مختلف الأعمال الشعرية والفنية، حيث أنه وصفها بأنها "ظاهرة ذات امتياز يمكنها أن تفسر كل شيء"¹ على حد تعبيره وعلى غرار حديث باشلار عن النار ورمزيتها، فمن المعروف والبيهي أن النار هي العنصر الكوني الأهم الذي تعامل معه الإنسان منذ القدم، ومنذ أن خلق وفتح عيناه تنبه لها من خلال رؤيته وملاحظته للبرق والنار المتولدة عن البراكين وحرارة الشمس واحتكاك الصخور... إلخ فحضور النار وتواجدها كان منذ

¹ غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، تر: نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، لبنان ط1، ص 11.

القدم وهناك العديد من الأساطير التي تبين ذلك كما لا ننفي وننكر حديث القرآن الكريم عن النار وجعلها رمزا للإنبعاث، ويتضح هذا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث أن قومه أرادوا حرقه وتشويه جسده، إذ أنها ستكون مميتة له كما توهم لهم غير أن التدخل الإلهي أحدث معجزة حيث تنقلب النار من لظى حارق ومميت إلى برد وسلام، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)"¹ وبذلك ينجو إبراهيم من الموت والهلاك وتصبح النار رمزا لاستمرار الحياة والانبعاث من جديد.

العودة إلى غاستون باشلار الذي استعمل النار بشكل أوسع والذي يقول ويعتبر أن سبب الهلع والخوف من النار جاء وراء عوامل اجتماعية أكثر مما هي طبيعية، ويطلق لنا مثال حيث يقول: "فإذا ما دنا طفل بيده من النار، يقوم أبوه فيضربه بالمسطرة على أصابعه"² فما نعرفه نحن أو الوالدين بالأحرى عدم لمسها لأنها تحرق ومدى خطورتها، وبينما الطفل يكبر، تنتقل هذه الفكرة وتكبر مع الطفل لتشكل وترسم دلالات أكبر ورمز لها من خلال هذا الموقف بالاحترام.

تعتبر النار أو الموقد من منظوره الموضوع الأول لأحلام اليقظة ورمزا من رموز الاستراحة ودعوة لها، فبمجرد الجلوس بمحاذاة النار يعطي للفرد أو الشخص القدرة على خلق إمكانية التأمل أو تأملات لا حدود لها. وتنشئ نوعا من المتعة النفسية والراحة حيث يقول باشلار: "أن هذه الوضعية تعين لنا انتباها من نوع خاص لا صلة له البتة بانتباه التردد أو المراقبة وهي فلما تتخذ من أجل نوع آخر من التأمل، قريبا من النار، يجب أن نجلس وأن نستريح بلا نوم"³ فمفهوم باشلار للنار يدور حول مفاهيم عديدة ممزوجة بين الخير تارة والشر تارة أخرى.

¹ سورة البقرة، الآية 66.

² غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 1، ص 14.

³ المرجع نفسه، ص 18.

وهناك من يذكر ويقول بأن النار ذات حدّين فهي مصدر قوة الإنسان وضعفه في آن واحد، ونرى هذا في سيميائية عنصر النار أو رمزيتها "فالنار تضيء وتدفيء، إنها عنصر قوة الإنسان وسموه على العالم الحيواني ولكنها يمكن أن تنقلب ضده فالنار تحرق، وهي علاقة مع الشمس".¹

ب/فصل الصيف:

فصل الصيف، هذا الفصل الذي نال حظه الأوفر من الاهتمام من طرف القدماء في أساطيرهم وقصصهم ومنحوا له سماته وصفاته الخاصة به التي تميزه عن غيره من الفصول، وقد أطلقوا عليه اسم أو مصطلح "تموز" نسبة للإله تموز إله الخصب عند البابليين، وسنوضح هذا في السطور الآتية تحت ما يسمى أسطورة "عشتار ومأساة تموز".

تقول الأسطورة أنه هناك إلهة اتصفت بالجمال والذكاء الفائق ألا وهي إلهة الحب والإخصاب تدعى عشتار أو (انانا)، تقدم لخطبتها إله يسمى "دموزي" أو "تموز" حيث أنه كان واقعا في غرامها وبعد محاولات عديدة وافقت وأصبحتا يتقابلان كأبي عاشقين، إلا أنها بعد فترة قررت النزول إلى العالم السفلي لسبب ما والذي تحكمه أختها التي تدعى إيرشكيغال والتي كانت تكرهها بشدة، فأمرت بقتلها فور وصولها حيث تقول الأسطورة: "أن الإلهة انانا وجدت إيرشكيغال بعد عبورها البوابة السابعة وهي جالسة على عرشها وأمامها تقف الآلهة السبعة الذين عرفوا باسم أنوناكي ويذكر النص السومري أيضا أن هؤلاء صوبوا نظراتهم إلى انانا وهي نظرات قاتلة" تعذب الروح سرعان ما احالتها إلى جثة هامدة".²

لتحل الكارثة فتموت عشتار توقفت الحياة لتوقف التزاوج، لكن بعد مرور الزمن تعود عشتار إلى الحياة وهذا بفضل إله الحكمة "إنكي" وسلمت زوجها دموزي بدلا عنها إلى عالم الأموات:

¹ شيرين معتوق الجزائري، رؤية سيميولوجية لفن المنمنمات الإسلامية في ظل العناصر الكونية الأربعة (جدة، المملكة العربية السعودية، المجلة الأردنية للفنون، العدد 03، أبريل 2019) ص 264.

² فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة و النشر والتوزيع، سورية، دمشق، 1999، ص 86.

"وتذكر النسخة السومرية في هذا الشأن أن الإلهة انانا صوّبت إلى دموزي "نظرات الموت" وأشارت إلى من كان معها من شياطين أن يأخذه بديلا عنها إلى عالم الأموات"¹ فماتت الطبيعة والزراعة والماشية وانتشر القحط، لكنه بعد مرور الوقت يرجع تموز إلى عالم الأحياء، فتعود الطبيعة والخير معه "الربيع بمطره وخضرته وخيراته كان موسما للاحتفال يبعث إله النبات والماشية دموزي وزواجه من إلهة الخصب انانا، ذلك الاحتفال الذي كان يقام في شهر نيسان من كل عام، والذي كان يتسم بطابع الفرح والبذخ، ومن المعروف أن الربيع سرعان ما ينتهي ليحل مكانه الصيف بشمسه المحرقة ورياحه اللافحة وأنداك تختفي الخضرة وتزول كل مظاهر التجدد والعطاء. وقد كان هذا في عقيدة سكان وادي الرافدين نذيرا بموت الإله دموزي ونزوله إلى عالم الأموات ليبقى هناك نصف عام أي لموسمي الصيف والخريف"² وهكذا يأتي فصل الصيف بجفافه وقحطه فغياب تموز في العالم السفلي لمدة ستة أشهر في السنة ما هي إلا تصوير لتعاقب الفصول، ستة أشهر في عالم الأحياء (فصلا الربيع والصيف) وستة أشهر في عالم الأموات (الخريف والشتاء) وهكذا يتجسد رمز الصيف في هذه الأسطورة إلى الحياة والولادة من جديد أو البعث من جديد.

الوجهة الآن إلى نورثروب فراي والذي يرمز إليه بالرومانس، حيث يقول في إحدى صفحات كتابه تشريح النقد مختصرا كل شيء: "من الواضح أن الشكل التام له مراحل ثلاث: مرحلة الرحلة الخطرة والمغامرات الأولية الصغيرة، ثم مرحلة الصراع الحاسم، وهو عادة يتخذ شكل معركة يموت فيها البطل أو عدوه، وكلاهما، وأخيرا مرحلة الارتفاع بالبطل وقد ندعو هذه المراحل على التوالي باستعمال المصطلحات الإغريقية agon أو النزاع، pathos أو الصراع المميت،

¹ فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة و النشر والتوزيع، سورية، دمشق، 1999، ص 89.

² المرجع نفسه، ص 125.

و anagnorisis أو الإكتشاف، اكتشاف البطل الذي أثبت بطولته حتى ولو لم يتمكن من النجاة من الموت.¹

فالناقد الكندي فراي هنا يبين لنا مأساة البطل ومعاناته الطويلة البطولية في مواجهة الشر وصراعاته المميّنة هاته المعارك المليئة بالمغامرات والتي تنتهي بانتصار البطل وفوز الخير على الشر حتى ولو مات البطل فموته يمثل ولادة جديدة، كل هذا الذي يرمز لفصل من فصول السنة ألا وهو الصيف عند فراي.

ج- الصيف عصر النار في رواية شجرة مريم:

صفحات هذا الفصل لا تختلف عن صفحات الخريف عصر التراب الفصل المشؤوم كما تقول الروائية سامية بن دريس في سطورها الأولى، واصفة الصيف "الصيف أعتى الفصول، موسم موبوء بالغبار والتسكع والضجيج، لون الرماد والرصاص والضباب وليمة الصباحات اليابسة والأزهار الميتة إشارة النهاية والفراغ هو الصيف"² فالمعاناة لا تزال مع فترة العشرية السوداء والتي تزامنت مع حرارة الصيف، كما أن المتمعن في عنوان الفصل: "الصيف عصر النار" فمن النظرة الأولى يتبادر إلى ذهنه أن النار هي رمز لشدة الحرارة الصيفية، والتي هي كناية عن كل الصفات المشؤومة من قتل، موت... والهجرة التي حرقت قلوب الأمهات والزوجات، تتحدث مريم مع نفسها قائلة: "والآن أين أنت؟ في أي البلاد ينتشر عطر أنفاسك ونزيف عرقك وجروحك الغائرة؟ هل تعلمت الإيطالية أم الإسبانية؟ الأخبار تؤكد أنك في أليريا، وبعضها يقول أنك في نابولي هذا هو مخبأ المهاجرين السريين؟"³

¹ نورثروب فراي، تشریح النقد، تر: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991، ص 240.

² سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 149

³ المصدر نفسه، ص 164.

كل هذا الألم والحيرة والعديد والعديد من الأسئلة التي تجول في رأس البطلة مريم تجعلها تموت في اليوم ألف مرة، الوضع نفسه الذي تعيشه زبيدة أم ياسين التي عاشت معاناة وألما كثيرا جراء فلذة كبدها.

كما لا ننسى العنف الجسدي الممارس على المرأة، وهذا يبرز في السلوكيات البشعة التي مارسها الحميدي زوج مريم الذي تزوجته بسبب الظروف حيث تقول:

"تحصنت بالصمت، نكست بصري نحو الأرض، ولم أكلف نفسي حتى مجرد الشرح، لأقتل النار الملغلة في دمه ولم يمهلني طويلا، هوى علي بكفه الأيمن، صفة أولى وثانية وثالثة"¹ فهي مجبرة أن تسكت وتتحمل كل هذا الظلم والاحتقار، لأنه الشخص الوحيد أو الأمل الوحيد الذي بقي لها بعد وفاة أمها و أختها.

فالصيف حقا كان كالنار على البطلة وعلى كل الناس نساء صغارا وكبارا أثناء العشرية السوداء، فقد حرقهم بلهبه وحرارته القاسية التي لا ترحم.

هذا الفصل كسابقه لم يكن فصل ولادة جديدة بل لخص كل مظاهر العنف والهجرة والمعاناة والقتل وكل ما هو سيء.

ثالثا: الشتاء عصر الماء:

جاء في سياق هذا الجزء من الرواية ربط بين فصل الخير والبركة "الشتاء" بعنصر ثمين من عناصر الحياة الأساسية ألا وهو "الماء"، وهذا ما يفسره العقل الباطني فالشتاء رمز الماء والأمطار والخصوبة، وبدون ماء لا توجد حياة، لهذا وجب الربط بين هذا الفصل وعنصره الذي يخدمه ويميزه عن باقي الفصول الأخرى، وقد نسب الناقد فيليب ثلاث رموز أساسية للماء بحيث

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 164.

يقول "للماء رمزية غنية جدا يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات رئيسية: مصدر الحياة؛ وسيلة تطهير؛ ووسيلة تجدد".¹

أ/ الماء رمز الحياة:

الماء سر الوجود واكسير الحياة؛ فلولا الماء لما كانت هناك حياة فهو عامل رئيسي في حياتنا أجسادنا قبل أرضنا؛ فجسم الإنسان معظمه ماء، فهو يلعب دورا كبيرا داخل أجسادنا كونه يمتص الحموضة داخل الجسم. وهذا ما جاء في قول الله تعالى "وجعلنا من الماء كل شيء حي"² فهو يعيد الحياة للأرض بعد موتها. يسقي الزرع والمحاصيل ويروي العطشان من جفافه... "الماء مادة الحيوان وسيد الشراب؛ وأحد أركان العالم؛ بل ركنه الأصلي؛ فإن السموات خلقت من بخاره والأرض من زبده وقد جعل الله تعالى منه كل شيء حي"³، يعني أن قيمته كبيرة لاتعد ولا تحصى لهذا جعله الله مادة احياء الكون والمخلوقات الحية فالنبات لا ينبت إلا به، والانسان لا يحيى الا به، يقول نورثروب فراي "الرموز المائية لها دورتها هي الأخرى: من الأمطار للينابيع، ومن الينابيع والنوافير الى الجداول والأنهار، ومن الأنهار الى البحر أو ثلوج الشتاء، وهكذا"⁴، فهو يشرح الدورة المائية للطبيعة وهذا يعود لقدرة وفضل الله عز وجل ومعجزته في أنه خلق من الماء كل شيء، فماذا لو انقطع الماء وجفت الأرض ستموت كل المخلوقات الحية والكون أجمعين ولا تبقى حياة.

كما ذهب القدامى عامة والفرس خاصة أن الماء أصل الكون ومصدره ويتجلى هذا في أساطير الفرس حيث "يعتقد الفرس أن الإله "ميترا" ولد بالقرب من جدول ماء؛ وهو رمز البعث

¹ فيليب سيرنج، الرموز في الفن -الأديان- الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، دمشق، شارع بور سعيد، ط1، 1993، ص 350.

² سورة الأنبياء، الآية 30.

³ محمود شكري الألوسي، الماء و ما ورد في شربه من الآداب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، دط، 1985، ص4.

⁴ نورثروب فراي، تشريح النقد محاولات أربع، تر: د.محمد عصفور، الجامعة الأردنية، عمان، الاردن، ط1، 1991، ص204.

والتجدد والخلود لأن الماء سبب لبداية أحداث الكون ونهايته"¹، ففي معتقداتهم أنهم جعلوا لكل عنصر له خلق منه وهنا الاله ميتر الذي خلق من الماء وأصبح يحكم في الأنهار والجداول والمطر وكل الرموز المائية.

فالماء سر الوجود وأرخس موجود وأغلى مفقود ولولاه لما كانت الحياة، وأهم الرموز الإيحائية في هذا الجزء من الرواية نذكر "نهر ابن حسن" الذي يعتبر مصدر غذاء وسقي وخير لأهل القرية: "من عادة نهرنا" نهر ابن حسن " أن يعيد دورته المعتادة كل شتاء حاملا باقات من الأمل لأشجار المشمش واللوز المرتجفة"²، فالأمطار تملأ هذا النهر ليروي الفلاحين من عطشهم والأرض من جفافها، فتضحك الطبيعة وتثمر الأشجار بعدما همشتها رياح الخريف، لهذا اعتبر نهر ابن حسن مصدر غذاء يعطي لكل زارع زرعه والآكل أكله، وفي سياق هذا الكلام نذكر قول الناقد باشلار الذي اعتبر أن "البحر" أمومي، والماء حليب ثمين، فالأرض تحضر في أرحامها غذاء فاترا وخصبا..."³، فقد شبه الماء بالحليب الدسم المغذي والذي يلعب دورا كبيرا في نمو الطفل الرضيع وتكوينه لهذا يعتبر الغذاء الأساسي والأول للطفل عند ولادته.

ومن منظار آخر يعد هذا النهر هو المرآة العاكسة لحالة سكان أهل كاف الحمام، فإذا امتلئ النهر ضحكت الطبيعة وغنت الحيوانات وخصبت الأرض، فأنتجت ما طاب من الثمار والنباتات، أما إذا أخلفت الأمطار موعدها حزن النهر ويئست الطبيعة، يقول نورثروب فراي "ذلك أن الطقس بمفرده لا يفسر نفسه لأنه يسبق المنطق ويسبق الكلام"⁴ فعندما حل الجفاف على أهل القرية يختارون من عجيب أمرهم "عامان للجفاف هلكت حقول القمح والشعير وضربها الصدا"⁵ لهذا

¹ أمال عريبي، الأساطير والطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة والأديان، ص 25.

² سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 122.

³ غاستون باشلار، الماء والأحلام، تر: علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، شارع البصرة، بيروت، ط 1، 2007، ص 177.

⁴ نورثروب فراي، تشريح النقد، تر: محمد عصفور، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991-1412 هـ، ص 134.

⁵ سامية بن دريس، المصدر السابق، ص 123.

قررت نساء القرية أن يقوموا بعادة شعبية تسمى (بوغنجة): "ما العمل الآن؟ تساءل الكبار بحيرة، وقالت أُمي بحزم لازم نعمل بوغنجة"¹، وهي عادة كانوا يقومون بها منذ القدم، فتجتمع نساء القرية ويجمعن كل ما توفر من خضر وطعام من كل بيت، ثم يقومون بطهي الكسكس واللحم: "أكل القوم كسكسا أبيض من السميد باللحم"²، وشرط هذه العادة بعد توزيعها على كل أفراد القرية صغيرا وكبيرا هي النية "التفتت أُمي إلى الجميع النية النية هي الصح"³ بقصد أن يرزقهم الله بغيث يسقي قريتهم الجافة، وقد فسروا هذا الجفاف بسخط وغضب من الله، فراحوا يدعون الله أن يستجيب لندائهم وبالفعل استجابت الأمطار للنداء وحصل ما كانوا ينتظرون، فأنزل الله عليهم غيثا روت حلوقهم العطشانة ومألت نهرهم الحزين الصامت، فأعادت الحياة لكل الكائنات الحية بعد يأس وتشاؤم" في كل هذا أن الأمطار الغزيرة لبت النداء، بل لبتة بسخاء..."⁴، فالمطر نعمة مباركة من الإله يقول الله تعالى: "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا"⁵ فسبحان الله، وفي غرار هذا القول يقول فيليب "إن المطر والتلج الذين يسقطان من السماء لا يعودان إليها بدون إرواء الأرض وبدون تخصيصها، وبعد بذرها لإعطاء الخبز لمن يأكله..."⁶، فالمطر مغذي فهو يعد من المياه المباركة التي ترمز للخصوبة والنمو والرزق والمنفعة لجميع الكائنات الحية، ويقال "أن ماء الغيث تبتهج الأسماع بذكره، والقلوب بوروده، وماؤه أطف المياه وأفضلها وأنفعها، وأعظمها بركة"⁷، وهذا لفائدته العظيمة فهو ينزل محمل بالعديد من العناصر الغذائية التي تغذي الطبيعة وترد فيها الروح.

¹ سامية بن دريس، المصدر السابق، ص 124.

² المصدر نفسه، ص 126.

³ المصدر نفسه، ص 125.

⁴ المصدر نفسه، ص 126.

⁵ سورة الشورى، الآية 28.

⁶ فيليب سيرنج، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، تر: عبد الهادي، دار دمشق، ط1، 1993، ص353.

⁷ محمود شكري الألويسي، الماء وما ورد في شربه من الآداب، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط1، 1985، ص ص

وهذا ما جعل أهل كاف الحمام يفرحون لنزول المطر بعد جفاف دام عامين "ثم كان عام آخر للخصب للقمح المخزن في المطامير والأكياس والمخازن، للشعير والبقول والعدس، والحمص... صاحت أمي "وين تحط البقول بالعريان"¹. دلالة على كثرة الخير من القمح والبقول والمحاصيل الزراعية ونضجها بفضل سقوط الأمطار وشدة فرح أهل القرية، والعريان في قولها تقصد به: الفقير الذي حرم من الخيرات لعدة أشهر.

ب/ الماء وسيلة تطهير وتجدد:

الماء رمز النقاء والطهارة "الخيال المادي يجد في الماء المادة النقية بامتياز. المادة النقية ببساطة"²، فالماء وسيلة جعلها الله تعالى للطهر من كل الشوائب و وسيلة تنظيف يقوم بها المسلم قبل كل الصلوات الخمس، لهذا وصفه بالماء الطهور المبارك، وهذا ما يقره فيليب "أنه رمز الطهارة في الإسلام الذي يؤكد على الغسولات الشعائرية التي يجب على المؤمنين إجراؤها قبل كل واحدة من الصلوات الخمسة اليومية"³.

يضيف غاستون باشلار "Gaston Bachlard" أن: "الماء الصافي إغراء مستمر لرمزية طهر سهلة"⁴، يقصد أن الماء في شكله نقي يوحي للطهارة والنظافة لهذا جعله المولى وسيلة تطهير، وأنه سهل الاستعمال وهذا ما جسده الكاتبة في روايتها بعدما حلّ الجفاف وطغت عليهم الجردان والفتران" كان الغزو غريبا وباعثا على الاشمئزاز ثم إنه أخطر ألم تكفنا كل الآفات الأخرى: الجراد ورجال الليل وها هي الفتران أيضا..."⁵، كأنها لعنة حلت على سكان كاف الحمام لهذا جاءت المطر كمادة للتطهير من كل هذه الآفات والشوائب "ثم كان المطر بعد انقطاع وغياب

¹ محمود شكري الألوسي، الماء وما ورد في شربه من الآداب، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط1، 1985، ص 126.

² غاستون باشلار، الماء والأحلام، تر: علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ط1، ص ص 197، 198.

³ فيليب سيرنج، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، تر: عبد الهادي، دار دمشق، ط1، 1993، ص 354.

⁴ غاستون باشلار، المرجع السابق، ص 198.

⁵ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 126.

وشوق بعد خريف عقيم جاءتنا رسل المطر مباشرة ونزلت بردا وسلاما على الأرض والبيوت والإنسان والحيوان تطهر من الدنس والرجس...¹

فالكاتبة نجحت في ترسيخ رمزية الطهارة للماء من خلال ما حدث لأهل كاف الحمام "الأمطار كخيوط متصل من السماء حتى اغتسلت الأرض وتطهرت".² هكذا تطهرت الأرض من كل الأضرار التي لحقت بها، فقد غسل الأرض وحتى قلوب الناس برحمته، وأزال من الأوراق والتربة كل الغبار والحشرات والفطريات...

وفي سياق آخر نتذكر قصة الطوفان التي حدثت في القدم مع سيدنا نوح عليه السلام عندما أرسل على الكفار بصفة خاصة طوفان ليطهر الأرض من سوء البشر الذين أفسدوا الأرض بأعمالهم السيئة "تعتقد معظم الحضارات والأديان السماوية أن الطوفان عقاب إلهي للبشر بسبب خطاياهم الكثيرة التي أفسدت الأرض ولم ينج منهم إلا الأخيار".³

وهذا ما حدث لأهل القرية فالقصة مشابهة لما حدث في قصة الطوفان ففي قصة سيدنا موسى جاء الطوفان ليعذب به الكافرين ويهلكهم لطغيانهم وشركهم به أما في الرواية بعث الله أمطارا غزيرة ليترد بها الجرذان والفئران تقول الكاتبة "حدثت فيضانات رهيبية جاءت خصيصا لتجرف الجرذان وتكنس هذا العذاب من قريتنا"⁴، وبهذه الأمطار المباركة كأنه يجدد القرية ويطهر قلوب السكان بها كي تسود الرحمة والتعاون بين أفراد كاف الحمام بعدما فسدت القلوب وتشتت العلاقات وفسدت النية...

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 126.

² المصدر نفسه، ص 126.

³ أمال عريبي، الأساطير والطقوس المشابهة في الحضارات القديمة والأديان، ص 19.

⁴ سامية بن دريس، المصدر السابق، ص 127.

وأرادت الكاتبة من خلال كل هذا أن تبين أن النهر كما يعكس الأمل والفرح والخير على أهل كاف الحمام، يستطيع أن يكون رمز شؤم وموت وفقدان وشوق، وهذا ما حصل فقد مات كبار القرية وضعفت النية وفسدت القلوب بين أفراد القرية.

رابعاً: الربيع عصر الهواء:

فصل الربيع هو عروس الفصول وأفضلها، لأنه رمز النقاء والصفاء والتطهير من كل الشوائب، فهو كما يحل على الطبيعة بالخير والفرح أيضاً يَأثر على نفسية الإنسان بشكل ايجابي عليه "بسبب زيادة معدل الأكسجين في الهواء وجمال أشعة الشمس والهواء العليل تكون الحالة المزاجية للإنسان في أفضل أوقاتها، حيث يزداد نشاط الإنسان وتتحسن حالته المزاجية والنفسية والعاطفية"¹ فكل فصل يؤثر حسب مناخه على نفسية الإنسان ويعالجها، لهذا اختارت الكاتبة سامية بن دريس أن يكون هذا الجزء هو مرحلة التشافي والتطهير بالنسبة لمريم بطة الرواية "ها هي تعود من البئر المهجورة، تعود نحو سطح الأرض المشبع بالشمس، كأن الحمل الثقيل انزاح عن كاهلها"²، لهذا نقول أن خضوع مريم لحمام مريم البصيرة قصد العلاج والراحة من أهم الإيحاءات الرمزية لهذا الفصل.

ويفسر الناقد الكندي نورثروب فراي في كتابه الشهير الذي أشرنا إليه سابقاً أنه ربط قصة الربيع بالكوميديا.

ولعل أبرز ما يميز هذا الفصل هو هواؤه النقي الدافئ الصافي الذي يهدئ النفوس ويريح القلوب، وهنا نرى نقطة اشتراك بين فصل الربيع وعنصر الهواء، فكلاهما يشتركان في النقاء والتطهير والراحة والحرية وكلمة الحمام تفسر رمزية النقاء والتشافي، فكلنا نعرف أن الحمام هو مركز تنظيف وتطهير وراحة، لهذا فالعلاقة تفسيرية تشرح بعضها البعض.

¹ مقال، تأثير الفصول الأربعة على الحالة المزاجية، جدة ولاء حداد، 7 فبراير، 2017. www.hiamag.com.

² سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 176.

فعنصر الهواء يعد من أهم العناصر التي وجدت في الحياة لأنه يعتبر سبب في حياة الإنسان والحيوان والنبات، يقول فيليب في هذا الخصوص "أنا نتنفس الهواء وذلك لا بد منه لحياتنا.¹ فالهواء عنصر أساسي ومهم لحياة كل مخلوق حي فهو العنصر الذي نتنفسه ونعيش به.

أما في القرآن الكريم لم ترد كلمة "الهواء" إلا في آية دلت على منكر، لقوله تعالى في شأن الظالمين: " وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً"² تعني كلمة هواء هنا أي خلاء، أي خالية من العقل والفكر، لكن ذكر في القرآن الكريم بديلاً عن الهواء في كلمة "ريح" وقد ذكرت 27 مرة، والمقصود بها الهواء المتحرك في الطبقات المحيطة بالأرض، قال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".³

فإن أعظم جنود الله الريح والماء، وسميت ريحا لأنها تريح النفوس، وفي معنى هذا يقول فيليب "الهواء في حالته المتحركة يصبح ريحا"⁴ أي أن معظم العلماء وأصحاب العلم وصفوا الهواء على صيغة ريح.

وفي هذا الصدد يقول نورثروب فراي "قالريح تهب حيث تشاء والصور المتعلقة بحركة "الروح" ترتبط في الأغلب الأعم بثيمة الغيب والأزمات المفاجأة".⁵

¹ فيليب سيرنج، الرموز في الفن. الأديان. الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط 1، 1992، ص 371.

² سورة إبراهيم، الآية 43.

³ سورة البقرة، الآية 164.

⁴ فيليب سيرنج، المرجع السابق، ص 372.

⁵ نورثروب فراي، تشريح النقد محاولات أربع، تر: محمد عصفور، الجامعة الأردنية، عمان، الاردن، 1991م، ص 205.

أما في الرواية ذكرت الكاتبة كلمتين تدل على رمزية الهواء هما "البخار والرائحة" نقول: "تضيق داخل سحابة البخار تدوخها رائحة الإكليل والزعرتر تمحي الرّيم وتغيب أمها وتضيق في التفاصيل الخاوية"¹، ويدل هذا على أن مريم بطلة الرواية تأثرت بنسيم الحمام المعطر بروائح الأعشاب التي كانت سبب في راحة نفسياتها ونسيان كل الأحزان والمشاكل وفراق أحببتها، بل سلمت نفسها وروحها لتلك الرائحة الطيبة المعطرة والمعالجة لها، وأدركت لحظتها مرحلة التشافي ويتبين هذا في قولها: "وهي تصغي فحسب تستنشق فقط"² بهذه العبارة نفهم أنها سلمت نفسها وأنها في قمة الراحة والارتخاء خفيفة نزعت ثوب الهم والتفكير عن عاتقها.

كما أن عنصر الهواء يختص بالتواصل والاتصال مع الغير، والكلام والنقاش، وقوة الاقناع والتفكير وغيرها، وتتجسد هذه الخاصية في الرواية عندما باحت مريم بطلة الرواية لمريم البصيرة صاحبة الحمام بأسرارها كلها وشاركتها حكايات ماضيها التي كادت أن تتفجر من شدة الصمت لعدة سنوات دون أن تشارك أحدا بما تقول "سلمت الأمانة من اللسان للأذن ومن القلب إلى القلب لم تعد وحدها صارت معها امرأة أخرى شقيقة في الأنوثة تحمل معها نصف التركة الهائلة"³.

وللهواء رمزية أخرى ألا وهي رمز الحرية، يقول فيليب "أنه أكثر العناصر الأربعة لطافة، لا يمكن الإمساك به، ومن هنا كانت العبارة حر كالهواء التي تجعل منه نوعا ما رمزا للحرية"⁴.

ففي الرواية عندما غاصت مريم في نسيم وهواء الحمام الذي كان يفوح بخاره برائحة الأعشاب من إكليل وزعرتر التي رتبهم مريم البصيرة، ضاعت مريم وتخلت عن كل قيودها وماضيها، جعلها تشعر كأنها مولود جديد، فقد أسقطت كل أثقال ومشاق أيام الحزن والفرق

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 176.

² المصدر نفسه، ص 176.

³ المصدر نفسه، ص 176.

⁴ فيليب سيرنج، الرموز في الفن . الأديان . الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دم شق، ط1، 1992، ص 371.

وتفرغت لروحها كأنها حرة طليقة تخضع لذاتها فحسب، والعبارة التي تفسر هذا "أحست أنها تحررت من أثقال ماضيها وأنها صارت خفيفة تحلق في السماء".¹

وفي الأخير نرى أن علاقة هذا الجزء وفصل الربيع بعنصر الهواء هي علاقة رمزية، تمثل رمز النقاء والطهارة والصفاء فكل عنصر من هذا العنوان يمثل نفس الإيحاءات والدلالات التي يفسرها العنصر الآخر، فقد انتقلت شخصية مريم من مرحلة إلى مرحلة أحسن في فصل الربيع، فقد استطاعت أن تعالج نفسها وروحها من الآلام التي مرت بها، ثم إنها التقت مع زوجها ياسين بعد فراق دام مدة طويلة" آه ياسين تتبدد كما الغبار ثم تلمع مثل الضوء فجأة"²، ليأتي الفرج بعد صبر ومعاناة طويلة.

¹ سامية بن دريس، رواية شجرة مريم، ص 177.

² المصدر نفسه، ص 190.

الفصل الثاني:

الأنساق الثقافية الأخرى

1- سيمياء العنوان في رواية شجرة مريم لسامية بن دريس.

2- سيميائية العناوين الداخلية (الفرعية).

3- دراسة غلاف رواية شجرة مريم.

4- الأمثال الشعبية.

5- العادات والمعتقدات.

6- الأغاني الشعبية.

بعد دراستنا للعناصر الأربعة عند مختلف النقاد والتعرف على رمزيتها في الرواية، نبدأ هذه الدراسة باستكشاف سيميائية العنوان، والتعرف على مختلف الأنساق الثقافية التي يحتويها.

1- سيمياء العنوان في رواية شجرة مريم لسامية بن دريس:

لقد حُظي العنوان بعناية كبيرة من طرف العديد من النقاد والدارسين وذلك لكونه يمثل أول ما يقع عليه نظر القارئ أو المتلقي، وبه يلج إلى عالم النص فلا ولوج له إلا بعد اجتياز هذه العتبة، ومنه فإنه من الطبيعي أن يفتح الكاتب شراع مؤلفاته بعنوان يترجم ويلخص مضمون الكتاب كونه يمثل هوية النص، وسمة أو ميزة تُعرف بها الرواية عن غيره من جهة، ويعطي نظرة عن جودة النص أو البنية الداخلية من جهة أخرى، لذا يجب على الأديب أن يحسن اختيار عنوانه، وهذا الاختيار يبين لنا أن تحديد العنوان ليس اعتباطيا بل له خلفية وقواعد وقوانين يعتمد عليها.

وهذا الأخير كما نعرف هو الذي يعلو واجهة الأعمال الأدبية، والذي يحمل في طياته دلالات مضمرة تفرض على الباحث أو القارئ وجوب تحليله وفك شفرته الإيحائية، واستنادا لهذه الأهمية وجب علينا الوقوف عند المفهوم الاصطلاحي له.

العنوان هو: "سمة العمل الفني أو الأدبي الأول من حيث هو يضم النص الواسع في حالة اختزال وكمون كبيرين، ويختزن فيه بنيته أو دلالاته أو كليهما في آن، وقد يضم العنوان الهدف من العمل ذاته، أو خاتمة القصة وحل العقدة فيها"¹ إذا فإن العنوان هو محور وخلاصة الكتاب فهو يضم النص بأكمله في جملة تفسر معناه، وللكشف عن معاني النص الخفية واستنتاج علاقتها بالعنوان وُجب على القارئ أو الباحث قراءة واعية، متعمقة ومتأنية مع القدرة على التحليل والتفكيك، فالعنوان يفتح بدوره على دلالات متعددة إن احتيار الروائية سامية بن دريس لعنوان

¹ بسام موسى قطوس، سيميائية العنوان، جامعة الأردن، ط1، 2001، ص 39.

الرواية "شجرة مريم" لم يكن عبثاً وإنما جاء عن قصد في شكل كلمتين متراكبتين مختصرتين ومكتفة مليئة بالدلالات والمعاني، في الوقت ذاته جاء بخط أسود غليظ قاتم والذي طبعت به حروف العنوان يأتي في الجانب العلوي من صفحة الغلاف أسفل اسم المؤلفة سامية بن دريس ويُشكل وحدة ذات مساحة كبرى في فضائه مقارنة بالوحدات الأخرى كاسم المؤلف، ودار النشر... إلخ.

كتب بالخط الأسود لكي يكون واضحاً بارزاً من ناحية، ودلالة على الخوف والعنف والموت والظلام الذي شهده المجتمع الجزائري في تلك الفترة من ناحية أخرى، فالأسود "رمز الحزن والألم والموت، كما أنه رمز الخوف من المجهول، والميل إلى التكتّم، ولكونه سلب اللون يدل على العدمية والفناء"¹.

وتمثل في الرواية في كل أجواء الحزن والألم الذي عاشته البطلة وأهل قرية كاف الحمام. فبالنسبة للفظ "شجرة" فتعني عموماً اسم نبات ذو أغصان وأوراق يقوم على ساق صلبة، والشجرة كما نعرف تدل على الحياة والنقاء والنسيم النظيف والاستمرارية والنماء والوجود... إلخ أي كل ما هو متعلق بالتجدد والحياة والنمو.

والمتمتع والمحلل لصفحات الرواية ومنتها يُلاحظ أنه يُعكس العنوان تماماً، فهي شجرة رمزت إلى كل ما هو سيئ من عنف، وموت وقتلى وخوف. وهذا ما يظهر لنا في الصورة المثبتة على الغلاف حيث أنها كانت ذات أغصان سوداء وأزهار وردية اللون وسنفصل في هذا لاحقاً، فهاته الورود أو الأزهار توحى إلى وجود بصيص من الأمل والبهجة والفرح والذي يعكس لنا اسم مريم الذي يحيل إلى السيدة مريم العذراء التي أنجبت المسيح عيسى بمعجزة ربانية، رمز الطهارة والصفاء والنقاء والمعجزة والمعاناة التي عاشتها أثناء وضعها لسيدنا عيسى عليه السلام، حيث تموضع اسمها في عدة آيات قرآنية والأهم في هذا أنها أول امرأة ذكر اسمها في القرآن الكريم

¹ أحمد مختار عمر، اللغة واللون، عالم الكتاب، القاهرة، ط1، 1997، ص186.

لقوله تعالى: "وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ"¹ كما تصفُ معاناة البتلة مريم وقساوة الحياة عليها. أما بالنسبة للعنوان "شجرة مريم" فهو اسم نبتة أو شجيرة أو عشبة صغيرة طيبة مباركة تخص فئة النساء تستعمل للإنجاب، ومنه تُعالجُ وتحلُّ كل مشاكل العقم والولادة خاصةً لارتباطها بمريم العذراء، تقول: "قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا"² فهي تعتبر أعظم معجزة حيث رُزقتُ بسيدنا عيسى عليه السلام وهي عذراء، أما في الدراسات السابقة والأساطير تقول إحدى القصص أن هذه الشجرة تقع في المطرية بمصر، حيث كانت مصر هي أول من استضاف العائلة المقدسة (السيدة مريم العذراء، والمسيح عيسى، والنجار) بعد هروبها من ظلم هيروودس ملك اليهود حين أراد قتل المسيح عيسى بعدما علم أنه سيكون ملكاً على اليهود، وعند وصول العائلة المقدسة إلى مصر اغتسلت من بئر وغسلت ثياب المسيح، فنمت أشجار البيلسان في تلك الأرض، وقد استظلت تحت شجرة فسميت شجرة مريم، وحكي أنها لم تُشفى امرأة إلا وأخذت ورقة أو لمست تلك الشجرة، ثم اتجهت العائلة المقدسة إلى عين شمس إلى المكان المعروف بالمطرية واستظلوا تحت شجرة تعرف إلى اليوم "شجرة مريم"³، والمتمعن في صفحات الرواية، يجد أن البتلة مريم ليست عاقر بل أنجبت ثلاثة أولاد، والشائع أن مشروب هذه الشجرة شفاء لكل عاقر، ولكنها ستحبل بإذن الله من معجزاتها، وهنا يقف القارئ أمام حيرة ولُبسٍ فعند قراءته للعنوان يظن أنها تتحدث عن حياتها وسلالتها أو شيء متعلق بالإنجاب، أو حتى عن هذه النبتة المباركة أو مريم العذراء لكنها تحدثت عن مأساة مريم البتلة ومعاناتها وأحلامها بعد العشرية السوداء، هذا من الناحية الدلالية.

أما من الناحية النحوية فقد جاء العنوان على شكل جملة اسمية، فلفظة "شجرة" جاءت خبر لمبتدأ محذوف يقدر بـ "هذه" فهي مضافة ومريم مضاف إليه.

¹ سورة مريم، الآية 16.

² سورة مريم، الآية 19.

³ القس يوسف، تادرس الحومي، تاريخ شجرة مريم وكنيستها، كنيسة السيدة العذراء بالمطرية، ط1، 2000، ص 20.

2- سيميائية العناوين الداخلية (الفرعية):

تُعرف العناوين الداخلية بأنها: "عناوين مُرافقة أو مصاحبة للنص، وبوجه التحديد في داخل النص كعناوين للفصول أو المباحث والأقسام والأجزاء للقصص والروايات والدواوين الشعرية... وهي كالعنوان الأصلي غير أنه يوجه للجمهور عامة، أما العناوين الداخلية فنجدها أقل منه مقروئية"¹.

ومنه تتدرج العناوين الداخلية لهذه الرواية بلغة شعرية رمزية إيحائية تحمل العديد من التأويلات والقراءات المتنوعة ومنه يأتي التقسيم إلى ثلاث فصول وكل فصل يحمل تحت طياته مجموعة من العناوين كما هو موضح في الرسم التخطيطي الآتي:

العنوان الرئيسي ← شجرة مريم

الفصل الأول ← رسائل ما بعد الغياب

← 1- أنثى العنكبوت

2- رحيق مالح

3- هجرة طير

4- وليمة الموتى

5- شارع الخليج

6- واعتدت لهن متكأ"

7- هدى الزين

الفصل الثاني ← الصيف عصر النار

- رسالة رجاء 1

- رجاء 2

- رجاء 3

¹ عبد الحق بلعابد، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، الدار العربية للعلوم، ناشرون منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 124.

- عطور
- الخريف: عصر التراب.
- كائنات خفاشية
- الشتاء: عصر الماء
- الصيف: عصر النار
- الربيع: عصر الهواء
- خارج الفصول

الفصل الثالث — توابل من أجل شاه بندر التجار

شاه بندر التجار

- 1- الجمعة: فلفل أسود
- 2- السبت: زنجبيل
- 3- الأحد: شربة عدس بالكمون.
- 4- الاثنين: قرفة: طاجين حلو
- 5- الثلاثاء: أرز بالكرم
- 6- الأربعاء: زعفران
- 7- الخميس: حبة سوداء.

هدى الزين

وليمة الموتى

2-1- رسائل ما بعد الغياب:

بداية مع الفصل الأول والذي عنوانه ب: رسائل ما بعد الغياب والذي انبثقت منه سبعة عناوين كل واحد منها يحمل موضوعاً ما أو فكرة جزئية تنتمي للموضوع العام. وهو لجوء المرأة للكتابة التي وجدت لها ملجأً تتحرر فيه من القيود والكبت والمعاناة التي تعانيها وسط مجتمعها، الذي يعتبر صوت المرأة "عورة" تحت وطأة ما يسمى بالعادات والتقاليد فراحت تكتب وتُعبّر عن أحلامها

وآلامها كونها وجدت راحتها وأحسّت بنوع من التحرر وفك القيود من خلال هاته الكتابات، حيث جاء ذلك على لسان الروائية قائلة: "أبعث لك رسائل من القلب عبر الأثير، بحماسة العشرين، لعلّي بهذه الرسائل سأرمم صدع فقدك، هذه الرسائل ستمنح صمتي معنى"¹ لتأتي هذه الرسائل واصفة معاناة المرأة الأرملة الذي تُوفي زوجها وما تعيشه من ظلم واحتقار وكلام خادشٍ وألمٍ شديد من طرف المجتمع المحيط بها والذي لا يرحمها أبداً، هذا بالنسبة للعنوان العام "رسائل ما بعد الغياب" والذي يعتبر عنواناً للفصل الأول لنغوص في عناوينه المندرجة تحته بداية مع العنصر الأول وهو:

2-1-1- أنثى العنكبوت: هذا الجزء الذي منحتة الروائية سامية بن دريس هذا الاسم والذي يُحيل إلى الوهن والضعف، فمن منا لا يعرف بيت العنكبوت، والذي هو عبارة عن نسيج من خيوط دقيقة رقيقة وشفافة، لا يكاد اللمس يقاربها، أو الريح تهبُ عليها إلا وتتمزق حتى أنها ضُرب بها المثل في القرآن الكريم حيث تردُّ في قوله تعالى: "وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۗ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"² هذا المثل القرآني يضرب به سبحانه وتعالى لبيان وتوضيح تفاهة وهشاشة الآلهة المتخذة والتي تُعبدُ من دونه بشتى أنواعها سواء أكانت غيبية أو مشهودة فهي أشبه بضعف بيت العنكبوت وهزله، ذلك البيت الذي لا يكاد يستمسك بنفسه، وهو معرض للهلاك والزوال لأدنى سبب، وكما هي حال بيت العنكبوت وهناً وضعفاً كذلك هو حال بيت البطلة مريم، تكمن العلاقة بينها وبين أنثى العنكبوت أولاً في أنها: أرملة فهناك من يسميها بالأرملة السوداء كونها تقتل زوجها فور التزواج لتبقى وحيدة مع صغارها، هذا هو حال البطلة مريم الذي قُتل زوجها أو أُغتيل وتركها تعاني مع أولادها هذا من جهة ومن جهة أخرى فبيتها شبيه ببيت العنكبوت في الهشاشة والضعف القابل للتمزيق والهلاك عند أدنى ملامسة جراء العنف والألم ومرارة الحياة وقساوتها عليها وهذا كله لسبب واحد كونها أنثى مغلوب على أمرها، ولم تذق حلاوة الحياة أو طعم الفرح

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 15.

² سورة العنكبوت، الآية 41.

حيثُ جاء على لسانها قول: "والآن ها أنا مثل العنكبوت أغزل حرير المرارة"¹ كما نجد البطلة في هذا الجزء تسترجع ذكرياتها مع عائلتها خاصة زوجها ياسين والتي لم تستطع نسيانه ولم تقبل فكرة موته حيث تقول: "لقد نسيت، لم أخبرك بما جرى، تغيرت الأحوال بعدك كثيرا، لم أعد مريم التي تعرف، مريم التي تخلت عنها، وأفردت جناحيك نحو السماء، لكني سأظل ألاحقك بحكاياتي"²، وهذا من شدة شوقها لزوجها فراحت تحكي له كأنه لم يمت، فلم تصبر على فراقه ولم تستطع نسيانه.

2-1-2- رحيق مالح: لا يختلفُ اثنان حول ماهية الرحيق والذي يعتبر الغذاء الرئيسي للنحل حيث يمتصهُ من الأزهار ويحمله إلى خلاياه ليتشكل لنا العسل، هذا الأخير والذي يتميز بمذاقه الحلو اللذيذ إلا أن العنوان "رحيق مالح" يُحيل لنا عكس ذلك ويشير لنا إلى ذوق نوع من الرُعب والخوف والموت وإلى كل ما هو مؤلم وسيء ولا شك أن هذا يتمثل في فترة العشرية السوداء وما عاشه المجتمع الجزائري بجميع أصنافه الكبير والصغير: من قتل وظلم وجرائم شنيعة وعنفٍ على المرأة بوجه الخصوص مما ترك أثرا كبيرا في نفوسهم حتى يومنا هذا مما جعلهم يبتلعون ويندوقون رحيقا مالحا، وهذا ما يتجلى في قول الروائية: "لقد تغير الوضع يا لالة، هنا أيضا هاجر الأمان، لقد صار الناس يُقتلون بطريقة بشعة ويختطفون الأطفال، وينتحرون شنقا وحرقا، يتناولون الممنوعات فما الفرق إذن؟ وكما قلت، لقد صارت الأرض محمولة على قرني ثور هائج"³ فكل الآثار السلبية الوخيمة التي خلفتها العشرية السوداء لخصتها الروائية في هاته الأسطر والتي بدورها انعكست سلبا على حياة البطلة مريم.

2-1-3- هجرة طير: من منا لا يعرف معنى الهجرة فهي الانتقال والرحيل من الموطن الأصلي إلى بلدٍ آخر لسبب ما سواء أكان ذلك بشكل فردي أو جماعي وقضية الهجرة لا تزال نشدها

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 20.

² المصدر نفسه، ص 21.

³ المصدر نفسه، ص 30.

وبكثرة في شباب الجزائر اليوم فالرواية تروي لنا أن البطلة مريم تُريد وتسعى للهجرة من منطقة كاف الحمام التي تكاد تنعدم فوقها شروط الحياة البسيطة، آملة في الذهاب إلى منطقة أخرى تتوفر فيها شروط معيشية أفضل من سابقتها تستجيب لطموحاتها وأحلامها إذ تقول: "دائماً هناك أرض ينبت فيها الحلم، أو ربما يقيم ريثماً تنهياً أرض أخرى، هكذا قلت لي، استدركت مريم لهذا سألني بوعدي لك يا ريم، سأرحل"¹ إلا أنها تتردد بين الحين والآخر وأصبح موضوعاً يثير قلقها كونها أول مرة تجازفُ مثل هذه المجازفة وترحل إلا أنها تحقق ذلك وترحلُ بعيداً ويُذكر هذا في آخر الرواية.

2-1-4- وليمة الموتى: هذا الجزء والذي كانت صفحاته تُعد على أصابع اليد، هذه الأخيرة والتي كانت في شكل رسالة أو تواصل بين العالم السفلي "عالم الأموات" والعالم العلوي "عالم الأحياء" وهذا في حالة الاشتياق الشديد إلى الفقيد وهذا ما أرادت فعله البطلة مريم للقاء أختها الريم وأمها وزوجها ياسين والتي اشترطت عليها لالة جميلة بغية تحقيق ذلك "النية الصادقة" وهذا يتمركز في قول البطلة: "قصة الوليمة، تسريب الأسرار المحظورة، أمر يعاقب عليه القانون، ولكنني لن أبوح بذلك سوى لك، أتمنى أن تصلك رسالتي، أنها تتحدث عما بين هذين العالمين، العالم السفلي والعالم العلوي، هل التواصل بين هذين العالمين ممكن؟ أقول إنه ممكن بطرق متعددة، مع شرط واحد وهو الصدق"²، لتستحضر بعد ذلك وتروي إحدى قصص التواصل مع أحد الأموات والتي تمت بنجاح.

2-1-5- شارع الخليج: هذا الشارع والذي وصفته الروائية قائلة: "والذي يقود نحو شارع الخليج أحد أكبر المراكز التجارية في شرق البلاد، حيث ضاع بصري أمام فخامة الفيلات ذات الطراز الآسيوي، والمحلات الممتدة العامرة بالسلع: الألبسة والأفرشة والأدوات الكهرومنزلية والهواتف وأجهزة الاعلام الآلي والمزهريات العملاقة والثريات التي كالكواكب، إن عيني كافيتين لرؤية كل

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 31.

² المصدر نفسه، ص 36.

هذه الخيرات¹ هذه الجُمْل التي ذكرتها الروائية مشيرة إلى الترف والغناء الذي ينعم به المجتمع الخليجي الذي يشهد كل مظاهر سيطرة المال والقوة في حين يوجد المئات من الأشخاص يموتون جوعا ويردا كل يوم وينتظرون لفتة ولو بسيطة من هؤلاء الأثرياء لكن على عكس ذلك فهم لم يبادروا حتى ولو بإعانة أو صدقة صغيرة مما يبين كثرة شحهم وبُخلهم.

2-1-6- واعتدت لهن متكأ: من منا يجهل هذه الآية الكريمة والتي تقول: "فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۗ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حُشِّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ"² ومعناها أن عند سماع امرأة العزيز بغيبة النساء إياها واحتيالهن في دمها، قررت أن تدعوهن لزيارتها، وحضرت لهن ما يتتكن عليه من الوسائد، وما يأكلنه من الطعام ومنحت كل واحدة منهن سكيناً لقطع الطعام، ثم أمرت يوسف أن يخرج عليهن فلما رأينه تعجبين من حسنه وجماله فجرحن أيديهن وهن يقطعن الطعام لدهشتهن وذهولهن وتعجبهن من هذا الخلق الفتان، وهذا ما فعلته تماما البطلة فقد قامت بإعداد فضاء خاص بهن تحت اسم الحرية ليلجأن إليه بغية تحقيق أهدافهن واسترجاع كرامتهن المسروقة: "لقد اعددت هذا المتكأ من أجل النساء الغاضبات من أجل الحالات ولأجل ملكات النحل حتى يُفرزن عسلهن بهدوء، أليست الدموع هي العسل؟"³ فهي تمثل المرأة المقاومة المجاهدة، تسعى لزراعة البسمة والأمل في وجوه النساء البائسات اللواتي ظلمتهن الحياة، آملة في تحسين معيشتهم وحثهن على العمل وملاً فراغهن لكي تحصل على عيشة سوية كريمة معتمدة فيها على نفسها دون حاجتها للرجل.

2-1-7- هدى الزين: هذا الاسم الذي برز كأحد الشخصيات المهمة في الرواية والذي يعتبر اسم مُحامية عاشت وأخذت نفس جرع الألم الذي عانت منه البطلة مريم ألا وهو أنهما امرأتان

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 42.

² سورة يوسف، الآية 31.

³ سامية بن دريس، المصدر السابق، ص 48.

فقدتا زوجيهما بطريقة بشعة ومدبرة، فمريم وهدى الزين امرأتان ذاقتا من نفس الكأس المليء بالألم والحزن، لتأتي هذه الأخيرة لتتقاسم مع البطلة مأساتها ولمساعدتها في آن واحد.

لينتهي هذا الفصل حاملا في طياته مجموعة من الرسائل مختلفة المضمون والموضوع والمكملة لبعضها البعض معالجة لقضايا مهمة فكما رأينا عند دراستها أن كل نهاية رسالة هي بداية لرسالة جديدة.

2-2- الصيف عصر النار: والذي يعتبر الفصل الثاني لرواية شجرة مريم عصر الشؤم والموت والحزن والقتل وكل شيء مؤلم، جاء هذا الأخير ليصف لنا فترة العشرية السوداء، التي عرفتھا الجزائر الحبيبة وما ذاقه الناس من ألم ومأساة آنذاك، فنجد عشر عناصر أو عناوين صغيرة تتدرج تحت هذا الفصل كل عنصر يروي لنا تفاصيل عن هاته الفترة القاسية، بداية مع رسالة رجاء والتي قسمتھا أو كررتها ثلاث مرات تعبيرا عن انتظارها الطويل.

2-2-1- رسالة رجاء 1، 2، 3: هذه الرسائل التي جاءت على شكل استغاثة واصفة فيها بطلا الرواية مريم مشوارھا الطويل عند ذهابھا إلى حمام يُدعى حمام مريم البصيرة والذي كان ملجأ للنساء الأرمال والمطلقات والمغتصابات ولكل امرأة ذاقت ما يكفي من الألم وما تعرضت له من عنف بنوعيه الجسدي والنفسي، بُغية حل عقدها وصندوقها المغلق الذي ذهب سره مع زليخة يوم زفافها آملة في مساعدتها لإيجاد حل لمشكلتها فتقول: "على كل حال هذا هو بابك العتيق الداكن. يكفي أن أسند ظهري إليه وأجلس عند العتبة وأنتظر دوري في الطابور الطويل"¹ ظلت مريم تنتظر وتنتظر حتى أتى اليوم الموعود الذي فتح فيه حمام مريم البصيرة أبوابه، وأخيرا انتهى الانتظار "وا عجا أكنت بانتظاري عند عتبة الباب؟ بابك العصي صار مشرعا، في رسالة واضحة تلاشت النقوش الغامضة كما لو أن رياح الليالي السابقة، كنست كل أثر، أ أكذب بصري؟ أم هي بركات

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 55.

الجمعة"¹، لتكون هذه الرسائل مُحاولَة من البطلة مريم في التخلص من واقعها الأليم المنحط رافعة من مكانتها فقاومت وتحذت الصعاب من أجل أخذ واسترجاع المسلوب والمنهوب.

2-2-2- عطور: جاء هذا الجزء بالتحديد، ليصف حجم العنف والفتنة المنتشرة آنذاك في الجزائر، وما خلفه في الشعب المتكون من أرامل ومطلقات وأمّهات فقدن فلذات أكبادهن، فكل هاته الأصناف تجمعت في حمام مريم البصيرة، ليأتي هذا العنصر "عطور" ليسم لنا ما يحدث داخل هذا الحمام من سحر وشعوذة... إلخ انها فتنة عظيمة حقا، هذا الأخير الذي تلجأ إليه النساء لأسباب أو نقائص معينة في حياتهن، حتى أصبح من اللازم أخذ موعد سابق للغرق في هذا العالم الوسخ النتن، وقد جاء هذا في الرواية: "ليس هناك شروط محددة أو رخصة لدخول حمام مريم، يكفي أن تأتي إليها، وتأخذي موعدا قبل عدة أشهر من أجل الغوص في بخارها العجيب"² وهذا يصف حجم الإقبال الكبير على هذا الحمام: حمام مريم البصيرة، حتى أن البطلة مريم كانت منهن رغم أنها متعلمة ومثقفة إلا أنها لجأت للعرافة كون أن الطب عجز عن معالجتها، فالظروف القاسية أجبرتها على ارتكاب هذا الجرم القبيح تقول الرواية: "تجاوزت البوابة العتيقة ذات الرائحة اللذيذة الصادمة، وقبيل الدرجات الثلاث نزعت نعلي امتثالا للإعلان المكتوب بخط عريض في الجدار إلى اليمين من المقصورة الزجاجية للحمام، في درج النعال تبدلت الأحوال، أحذية أنيقة، أحذية ملفتة مقممة بل ناطقة بالكبر، أحذية عادية، أحذية مهترئة، لم أر درج الأحذية ولكني رأيت درجات المجتمع صاعدة ونازلة، باذخة وصارخة بالعوز والحاجة"³ وهنا يتضح لنا أن السحر والشعوذة لا يقتصر على الجاهلين فقط أو فئة معينة بل هذا راجع إلى ضعف الإيمان وعدم المعرفة الصحيحة بالإسلام.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 59.

² المصدر نفسه، ص 62.

³ المصدر نفسه، ص 64.

2-2-3- الخريف: عصر التراب: تصفه الروائية ب: "أكتوبر شهر الأحزان والكبت والرحيل والشرفات المغلقة والستائر المنسدلة والغضب أيضا. دائما الوجه القاتم والغضب والحزن والبكاء هي القواسم المشتركة، فهل قدر علينا أن نعد شهور الحزن"¹ هاته الأسطر اختصرت هذا الفصل في أنه فصل الموت والحزن والقتلى والجرحى والمجازر كونه جاء في فترة العشرية السوداء.

2-2-4- كائنات خفاشية: من يقرأ هذا العنوان للوهلة الأولى يتبادر إلى ذهنه أو يفهم أنها حيوانات أو بالأحرى خفافيش، إلا أنها ذات دلالة أعمق فهي تعبير مجازي عن الإرهاب أو الجماعات الإرهابية التي كانت تغزو الجزائر في فترة العشرية السوداء، والذين كانوا لا ينزلون من الجبال إلا في الليالي الحالكة الظلام فكانت هاته الليالي بالنسبة لسكان القرية في ذلك الوقت رمزا للخوف والموت والرعب بأتم المعنى، جاء على لسان الريم: "لقد نجوت منه ومن جماعته، كان سيقتلني في أحسن الأحوال كان سيهديني لأميهره طعاما في الجنة يرجو الله أن يستبدلني بالهور العين، ونساء كالبيض المكنون، كان يعتقد أنه يقدم تضحية عظيمة من أجل الله، من أجل الجنة"²، فهذه الجمل توضح لنا تفكير واعتقاد الجماعة الإرهابية والذين كانوا يعتقدون أنهم مجاهدون في سبيل الله، يرتكبون كل هاته الجرائم الشنعاء طمعا في رضا الله عز وجل وجنته.

2-2-5- الشتاء: عصر الماء: مختصر القول هنا أن الشتاء جاء ليظهر هذا البلد من الفتنة التي حلت بها والماء هنا هو رمز للنقاء والصفاء والولادة من جديد، والطهارة والاستمرارية. وهذا ما بينته الروائية في أسطر روايتها حيث أن الله رزقهم بالمطر بعدما استعمرهم الجفاف وجفت الأرض والحقول، جاء الفرج بإذن الله بعد صبر طويل وهذا ما يرمز له "الشتاء عصر الماء"، عصر الطهارة والفرج بعد القرح.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 88.

² المصدر نفسه، ص 117.

2-2-6- الصيف: عصر النار: من الملاحظ أن هذا العنصر هو نفسه عنوان الفصل الثاني، رمز الحرارة والشقاء والفتنة وكل الصفات المذكورة سابقا. "الصيف أعتى الفصول، موسم موبوء بالغبار والتسكع والضجيج لون الرماد والرصاص والضباب وليمة الصباحات اليابسة والأزهار الميتة، إشارة النهاية والفراغ هو الصيف في قاموس كاف الحمام العتيق"¹

2-2-7- الربيع: عصر الهواء: هذا الفصل الذي يعتبر الأحب للإنسان ففيه تتفتح الأزهار ويمتلأ الكون بألوان الطبيعة الجميلة الخلابة ودفئ جوه، وصفاء سمائه الزرقاء، فهو زينة الفصول وأبهاها، ففيه تشرق الشمس بعد غيابها مع نسيم هواءه العليل والذي يرمز إلى التجديد والتغير مثله مثل ما يحصل مع البطلة مريم فقد بدأت تتخلص من واقعها الأليم الذي كان حافلا بالمعاناة والحزن لتتحرر منه وتفك قيودها كذلك من هاجس الخوف الذي كان يطاردها ويبرز هذا في قولها: "أحست أنها تحررت من أقال ماضيها وأنها صارت خفيفة تحلق في السماء، ولعل عينيها قد اتسعتا نسبيا"² فمريم تصف نفسها كأنها مولود خلق من جديد فقد تخلصت من كل المآسي والآلام والمشاق التي كانت تعانيها لتنتقل من مرحلة إلى مرحلة أحسن خالية من كل الأحزان والآلام.

2-2-8- خارج الفصول: يأتي أخيرا وليس أخيرا هذا العنصر والذي يتربع على عرش كل الفصول السابقة، حيث أنه يعكس لنا شعور مريم وفرحتها الشديدة كونها تخلصت من كل الحواجز والمعوقات التي كانت واقفة في وجهها من خوف صمت وعنف وقيود لا تُعد ولا تحصى، لتتعم بحياة كريمة تليق بالإنسان.

2-3- توابل من أجل شاه بندر التجار: هذا الفصل الثالث والأخير والذي اندرجت تحته مجموعة من أيام الأسبوع بالترتيب والتي بدورها مرتبطة بأحد توابل الطعام فالروائية هنا جمعت بينهما وبين

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 149.

² المصدر نفسه، ص 177.

شخصية شاه بندر التجار، الرجل فاحش الثراء والذي مصدره الاستفادة من الإرهاب في فترة العشرينية السوداء ليكون رمزا للفساد بشتى أنواعه ورمزا للظلم والعنف والتكبر والطغيان حيث تقول الرواية: "شاه بندر التجار لن يتركني لأخذ نصيبي من الهواء، إنه يملك البلاد والعباد"¹ والذي تحدثت فيه أيضا المحامية هدى الزين عن اغتيال زوجها عبد الحميد بسبب شاه بندر التجار الرجل الطاغي لقاسي القلب متوعدة إياه بالفضيحة وعدم ترك دم زوجها يذهب هدرًا.

لينقسم هذا العنوان إلى مجموعة من العناوين وهي كالاتي: الجمعة: فلفل أسود، السبت: زنجبيل، الأحد: شربة عدس بالكمون، الاثنين: قرفة: طاجين حلو، الثلاثاء: أرز بالكركم، الأربعاء: زعفران، الخميس: حبة سوداء، هدى الزين ووليمة الموتى. بداية مع العناوين المرتبطة بأيام الأسبوع أولها يوم الجمعة وآخرها الخميس والتي بدورها ترتبط بأنواع من التوابل كل يوم وتابله، هذا الأخير الذي يعكس لنا يوميات البطلة مريم في مطعمها وهو العمل الذي وجدته يُناسبها كونه يواكبُ وقتنا أو زمننا، فقد أرادت أن توصل لنا رسالة ألا وهي: أن مهنة الطبخ هي المهنة المناسبة لامرأة تعيش في ظروف كظروفها أو لأي امرأة لا تحمل شهادة جامعية إلا ما تعلمته عن أمها في الطبخ، فهي شهادتها التي تواجه بها ظروف المعيشة القاسية ومصدر رزقها وروجان هذه المهنة واقع معاش، فالأكل أصبح الشيء الأقرب إلى قلب الإنسان باعتباره كائن يشعر بالجوع دائما حتى أصبح الناس يتنافسون على من سيطبخ أحسن، فمهنة الطبخ واحدة من أقدم المهن ولن تفقد أهميتها أبدا ما دام الجنس البشري موجودا، وهذا ما نلتمسه في أسطر الرواية: "نحن في عصر الأكل... لهذا وجدت عملا في المطعم، من كان يصدق؟ أن العمل الذي تعلمته بالفطرة سيصبح مصدر رزق أولادي، تجارة الطعام تزدهر"²، فالبطلة أخيرا وجدت عملها المناسب الذي يحقق أحلامها ويسد رمق جوع أولادها الثلاثة الصغار، حتى أنها أصبحت تحلم بأن تصبح طاهية مشهورة لما لا.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 205.

² المصدر نفسه، ص 210.

لنخوض الآن في العنوانين المتبقية والتي ختمت بهم الروائية سامية بن دريس صفحاتها:

2-3-1- هدى الزين: هي شخصية تمثلت في أنها محامية البطلة مريم والتي ذاقت وعاشت نفس ألمها، تحاول مساعدتها وتتقاسم معها حزنها: "اسمعي يا مريم، أنا لا أحقد، ولكني أحب الحقيقة، كان عبد الحميد رجلا نزيها، يقول الواقع أن نهايته منطقية، زوجي كان محاميا لا يخاف من الحقيقة، وقد دفع ثمنها، الشيء غير العادل هو أن يلقي زوجك المصير ذاته، ومن دون سبب، أريت؟ لك ثلاثة أولاد، وأراك ما زلت تمسكين بيده"¹ لتأتي هذه الصفحات مبينة انتقام القدر، الذي يفعل ما لا يمكن أن يفعله المظلوم، فإن الله لن يضيع حق أحد أبدا، فإن لم يفعل في الدنيا، فبكل تأكيد في الآخرة حيث أن الله انتقم له، فابن شاه بندر التجار الوحيد ذو الثالثة عشر من عمره، يموت بسبب ارتطام دراجته الهوائية بشاحنة من الوزن الثقيل لتجعله كاللحم المفروم، هكذا انتقم القدر بمقتل فلذة كبد شاه بندر التجار والذي يُجن وينهارُ بعد ذلك: "وهكذا انهار الجدار، وسقط الثور، لقد جن الامبراطور، وخرج دون ملابس كما في القصة المشهورة "الثياب العجيبة" وتمتت المحامية "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام" وقلت "إن الله وإنا إليه راجعون"² هذه هي نهاية كل ظالم على وجه الأرض.

2-3-2- وليمة الموتى: هنا بالتحديد تتوعد البطلة مريم بالرجوع إلى قريتها كاف الحمام لبعض الوقت تحقيقا لنذرها الذي نذرتة، لتعمل هذه الأخيرة كسكسا باللحم والخضار أو وليمة بغية التصدق بها على روح موتاها الثلاث أختها الريم أمها وزوجها ياسين، تكريما لهم وطمعا في إعانة الله لها في تربية هؤلاء الأيتام وغُفرانا لها على ما ارتكبتة من أخطاء لتنتهي قصتها برؤية بصيص من الأمل واحساسها بأن الحياة بدأت تبتسم في وجهها "فأحسست أنني لست وحيدة وأن هناك دروبا تتفتح مثل الأزهار أمام ناظري، بعضها متعرج بعضها ملتو وبعضها مستقيم"³

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 232.

² المصدر نفسه، ص 233.

³ المصدر نفسه، ص 235.

لتنتهي مأساتها الطويلة في كاف الحمام مودعة إياها لكنها ستبقى محفورة في قلبها مع أختها وأمها وزوجها. لنستنتج في الأخير أن كل هذه العناوين السابق ذكرها ما هي إلا رسائل صغيرة مكملة للعنوان الرئيسي والتي تساعد في الولوج إلى النص أو الرواية بعمق وتمعن كبير.

3- دراسة غلاف رواية شجرة مريم:

يعتبر الغلاف هو أول ما يقع النظر عليه وآخر ما يبقى في ذاكرة القارئ، حيث أنها أول عتبة يقف عليها وتُفتتُ انتباهه، كونه يحمل دلالات جمالية وإيحائية عديدة "الملاحظ كما يرى" ج. جينيت أن الغلاف المطبوع لم يعرف إلا في القرن 19م، إذ أنه في العصر الكلاسيكي كانت الكتب تغلف بالجلد ومواد أخرى، حيث كان اسم الكاتب والكتاب يتموقعان في ظهر الكتاب، وكانت صفحة العنوان هي الحاملة للمناس، ليأخذ الغلاف الآن في زمن الطباعة الصناعية، والطباعة الإلكترونية والرقمية أبعادا وآفاقا أخرى¹ فالغلاف هو الباب الذي نفتحته أولا لندخل إلى قلب البيت والذي تكمن وظيفته في جذب انتباه القراء لهذا الكتاب، إذ كثيرا ما نجد أن معظم الكتب يحكم عليها من غلافها، قبل قراءة عنوانه حتى، وكثيرا ما تجذب واجهة الكتاب أو غلافه الجيد قراء كثيرين، وهو أمر لا يمكن لغلاف عادي تحقيقه، فلهذا يجب التأني والتعقل أثناء تصميم الغلاف، وغلاف رواية "شجرة مريم" تألف من العناصر التالية:

أ/ اسم المؤلف

ب/ العنوان

ج/ الصورة وألوانها

د/ دار النشر

¹ عبد الحق بلعابد، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناس، الدار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 46.

أ/ اسم المؤلف: ويعتبر الشخص الذي يُنشئ أو يبتكر العمل الذي يتم كتابته، أو بعبارة أخرى هو صاحب الإبداع، ويعتبر همزة وصل بين النص والقارئ ويستحيل تواجد إبداع أو كتاب من دون مؤلف فهو الذي يقوم بإفراغ كامل طاقته الفكرية لإنجاز هذا العمل بإبداع فائق وإخلاص.

ونجد في أعلى صفحة الغلاف "سامية بن دريس" باللغة العربية وأيضاً الأجنبية اسم مؤلفة هذا العمل، ويظهر في الجهة العلوية من الغلاف كما ذكر سابقاً، اسم الكاتبة مكتوباً بخط أسود بارز يصغر خط العناوين بقليل، الذي يدل على الخوف وكذلك الموت والخوف من المجهول، وهذا ينعكس على نفسية المؤلفة الحزينة نظراً للظروف التي عرفتتها في تلك الفترة وهي فترة العشرية السوداء الكابوس الذي لم يفارق ذهن المجتمع الجزائري، حيث ذاق ألم الفقر والجوع والخوف وويلات الحرب والإرهاب.

ب/ العنوان: جاء العنوان "شجرة مريم" اسم المؤلفة مباشرة بخط أسود أغمق وأغلظ من المؤلفة نفسها والذي كسابقه يرمز إلى الحزن والخوف وكل ما هو مأساوي بمختصر القول، والذي عكسته أسطر الرواية ولا نُطيل الكلام حيث أنه دُرس بشكل مفصل في الصفحات السابقة والموسوم ب: "سيمائية العنوان".

ج/ الصورة واللون: تُعرف الصورة بأنها رسالة بصرية تُحقق تواصلًا عاطفياً بصرياً مع القارئ أو المتلقي تحمل بين طياتها دلالات ومعاني عديدة. تمثلت صورة الرواية هنا في منظر طبيعي كئيب على شكل شجرة ذات أغصان سوداء تعلوها أزهار وردية اللون مع سماء ممزوجة بين أخضر غامق وأصفر فاتح كأنها تحمل لنا رسالة مليئة بالحزن لكن يكسوها قليل من الأمل والفرح أو الفرج (الأزهار الوردية) ليأتي الشرح والتفصيل كالآتي:

ج/1- الشجرة ذات الغصون السوداء: من المعروف في حياتنا اليومية أن الأشجار خضراء ذات غصون بنية ترمز للصفاء والنقاء والاستمرارية والحياة الجميلة الخالية من المعاناة هذا حسب قراءة أي شخص عادي، إلا أن ما نلاحظه في هذه الصورة التي تحتاج لتفكير عميق قصد فهمها

واستخراج دلالاتها وإيحاءاتها المخفية، فالشجرة هنا غصونها سوداء لون الشؤم والقساوة والحزن والموت والفناء... إلخ وهذا ما عاشه سكان قرية كاف الحمام "الليل الذي التهم الرجال ورمل النساء ويتم الأطفال وعرى القلوب، ذلك الليل الدامي المزروع في الذاكرة كخنجر صدئ"¹ هذا ما يوحي إلى كمية الخراب والخوف والإجرام الكبير كما أنه يُحيل من خلال أغصانه أن الجزائر بلد قوية وستظل قوية ما دام شعبها متمسك بها.

ج/2- السماء الخضراء: القراءة السطحية كسابق الأمر تقول أن السماء زرقاء صافية إلا أنها برزت بلون أخضر غامق مما يدل ربما عن الرغبة الشديدة في الاستقلال المزوج بالقليل من اللون الأصفر ليشكل لنا لونا أصفرا مخضرا: "الأصفر المخضر من أكثر الألوان كراهية، وهو بدرجاته المتعددة يرتبط بالمرض والسقم والجبن والغدر والبذاءة والخيانة والغيرة"² ويتجلى هذا في الخراب والقنابل والرصاص والدم ورائحة الموت التي غيرت لون السماء وشوحتها، حيث جعلتها في صورة ينفّر منها أي شخص رآها، الأيام على الشعب الجزائري بأصنافه.

ج/3- الأزهار الوردية: ربما تريد الروائية هنا إيصال رسالة هي أن بعد الهم والغم والمعاناة يأتي الفرج لتكون هاته الأزهار الصغيرة الوردية المتناثرة في أغصان الشجرة رمزا للتفاؤل والحياة، فاللون الوردي هو رمزُ الأنوثة المفضل عند كل امرأة أو بنت "كما يدل على حيوية الشباب وصحته"³ فدلالاته تنوعت في الرواية: قد يكون رمزا لمريم العذراء الطاهرة الروح، أم إلى تحرر البطلة مريم من قيودها، أم عن الصفاء والحب والخير والجمال التي كانت القرية تتمنى أن تعيشه ولو للحظة صغيرة. إلا أنه نستوحي من دلالة اللون كل ما هو جميل وحسن باعتباره يدخلُ البهجة للقلب. فكل هاته الألوان والرسومات الممزوجة بين السلبية والإيجابية ما هي إلا إشارات ورموز اختارتها

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 87.

² الدكتور أحمد مختار عمر، اللغة واللون، كلية دار العلوم، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1997، ص 184.

³ المرجع نفسه، ص 185.

الروائية سامية بن دريس بوعي كبير فهي ليست بالأمر الاعتيادي وكلها جاءت مرآة عاكسة لمضمون الرواية رغم ما تحمله من تخفي وغموض.

ج/4- دار النشر: لقد كانت دار النشر آخر ما تختم بها الروائية صفحة غلافها، حيث ذكرت بخط صغير جدا مكتوب باللون الأسود داخل إطار صغير وردي اللون مع وجود شعار هذه الدار ثم تكرر ذكرها في الصفحة الثانية والثالثة بعد الغلاف وهذا يدل على الوظيفة الاشهارية التي تؤديها دور النشر حيث تقوم بطباعة العمل الأدبي ثم الإشهار به. ليكون الغلاف بجميع عناصره عتبة ضرورية ومهمة للولوج في أعماق النص.

الآن سنتطرق لدراسة مختلف الجوانب الأخرى من أنساق ثقافية والتي وردت بشكل كبير والتمسناها في معظم صفحات رواية شجرة مريم، نذكر منها: الأغاني الشعبية، والأمثال. هذا الموروث الثقافي الذي شبع به الروائية سامية بن دريس صفحاتها مما أضفى لها ميزة خاصة وقيمة فنية كبيرة. وبناء على كل هذا سنقوم بدراسة هاته المعطيات السابق ذكرها بالتفصيل على النحو التالي:

4- الأمثال الشعبية:

من يقرأ الرواية للوهلة الأولى ينتبه لصفحاتها أنها تزخر بالأمثال الشعبية الجميلة التي زادت رونقا وجمالا وأعطتها قيمة ولمسة خاصة بأنواعها سواء أكانت أمثالا ذات طابع اجتماعي أو ديني أو غيره... إلخ.

ويعرف المثل بأنه: "جملة مفيدة موجزة متوارثة شفاهة من جيل إلى جيل، وهو جملة محكمة البناء بليغة العبارة شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات"¹، ولا نزال نشهد هذه الأمثال المتوارثة حتى يومنا هذا، وفي تعريف آخر يقول لمحمد حقيق: "هي الوسيلة التعبيرية التي يتخذها الانسان

¹ جمال طاهر، موسوعة الأمثال الشعبية، كتب عربية، ص 25.

في وصف تجربته الخاصة، وفي تقييم تصرفات غيره وفي عرض وسائل حياته، وطرق معيشته، ونفسية وطبائع أفراد مجتمعه... يعتمد في هذه الوسيلة على الفطرة والمثالية والصدق... ومحاولة الإصلاح¹.

فالأمثال ببساطة نابغة من تجربة شخصية أو خبرة توارثتها الأجيال منذ القدم وبعيد هذا سندرس الأمثال التي وردت في الرواية ونشرحها:

* "العين يملأها التراب والدود كما قيل"² هذا المثل معروف وشائع بين أوساط المجتمع الجزائري وحتى في البلدان العربية الأخرى لا يزال يتداول من بلد لآخر، ويضرب هذا المثل لوصف طمع الإنسان الشديد وجشعه ورغبته في الزيادة حتى ولو كان مكتفياً، فطبع الإنسان طماع ولا يشبع أبداً. وهذا المثل يشبه نوعاً ما قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على ما تاب".

* "الي يحب الزين يصبر لعذابو"³ هذا المثل الذي جاء على لسان زليخة أم مريم وهي تداعب ابنتها ويعني هذا المثل إذ أردت شيئاً ما عليك أن تصبر وتحمل كل العوائق فمثلاً الإنسان الذي يحب شخصاً ما، يتحمل كل ما يحدث له جراء محبته له وأن يتغاضى على كل شيء كونه هو من أحب ذلك.

* "لا يعجبك نوار الدفلة مع الواد داير الظلايل، ولا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل"⁴ هذا مثل جزائري بامتياز يقصد به أنه يجب على الإنسان أن لا يندفع أو يعجب بالمظهر الخارجي للشخص أو البنت بالأخص دون الاهتمام بالباطن لأن الجمال جمال الروح لا الجسد.

¹ الحاج محمد حقيق، الأمثال الشعبية في ليبيا، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1978، ص5.

² سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 61.

³ المصدر نفسه، ص 100.

⁴ المصدر نفسه، ص 112.

فالجمل يزول مع مرور الوقت ولا تبقى إلا الأخلاق الحسنة ونلتمس هذا في الحديث الذي دار بين زبيدة أم ياسين وزليخة أم مريم حين ذهابها لطلب مريم ليد ابنها ياسين.

* "على كرشي نخلي عرشي"¹ هذا المثل كناية عن حب النفس والمثل يضرب ويصف الإنسان الذي تصل به ارتكاب الجرائم من أجل تحقيق أرباحه وأطماعه والتي تؤدي به إلى الخسارة حتما.

* "سوق النساء سوق مطيار يا داخلو رد بالك يوريولك من الريح قنطار ويديولك من راس مالك"² جاء على لسان أم مريم وغالبا ما نلمح أنه يتحدث عن مكر النساء وكيدهن وهذا المثل يشوه صورة المرأة بعض الشيء ويصفها بأنها مذمومة وماكرة، وغرست في ذهن الناس صورة مغلوفة وماكرة وغرست في ذهن الناس صورة مغلوفة وسيئة عن المرأة ومعناه الحذر والحذر من النساء.

* "كي تشبع الكرش تقول للراس غني": وهو مثل يصف ويعبر عن حالة الفرح التي يكون فيها الشخص أو الإنسان عندما يجد نفسه مكتفيا ولا ينقصه شيء وقد جاء هذا واصفا حالة النساء في الرواية عندما أكلن وشبعن قمن للرقص والغناء...إلخ.

* "الي قرصو الحنش يخاف من الطارفة تعني الحبل" الأم زليخة تتحدث أثناء خطوبة ابنتها من ياسين فهي خائفة أن يجري لها ما حدث للريم ومعناه من لدغه حنش أو ثعبان أو أفعى خاف حتى من الحبل وهو يصف تجربة مؤلمة مر بها الإنسان.

* "ظل راجل ولا ظل حيط"³ هذا المثل يأتي ليبين قيمة وأهمية الرجل في حياة المرأة ودوره المهم فالمرأة لا تكتمل إلا بالرجل فلا يمكن الاستغناء عنه.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 210.

² المصدر نفسه، ص 112

³ المصدر نفسه، ص 166.

* "أخرج لربي عريان يكسيك"¹ أي لا تتافق ولا تختبئ ولا تخف من أحد فالخوف من الله عز وجل وحده، فالإنسان الصافي المعتدل والمستقيم والحميد الأخلاق الله دائما معه يسانده في السراء والضراء.

5- العادات والمعتقدات:

5-1- العادات:

تعتبر العادات والتقاليد من أكثر العناصر أهمية وانتشارا حسب كل بلد أو مجتمع تجعله مميزا ومختلفا عن غيره من البلدان وقد جاء تعريفها كآتي: "وترتبط بظروف المجتمع الذي تمارس فيه، من حيث الزمان والمكان، والنوع، الجنس، والدين والنظرة إلى الحياة، وحسب آلاف العوامل الأخرى ومن أكثر العادات انتشارا عادات الزواج، والختان وطقوس الميلاد، والوفاة وأبجديات الاستقبال، وفروض التوديع، وآداب الطعام"²

واستنادا إلى هذا القول نلاحظ أن هذا العنصر قد أخذ مكانته الكافية والواسعة في رواية شجرة مريم حيث أنها استطاعت الوصف والتعريف بعادات وتقاليد المجتمع الجزائري العريق حيث نجد أنها تحدثت عن الزواج ومراسيمه بشكل دقيق متوغلة في حياة المجتمع الجزائري قصد التعريف به.

أ- الزواج ومراسيمه:

تحدثت الروائية سامية بن دريس عن الزواج وطقوسه حيث أنه يعتبر الشيء الوحيد الذي يربط بين الرجل والمرأة ويجعلها علاقة شرعية وطيدة يعترف بها الدين الإسلامي، ويقدها وقد التمسنا هذا في صفحات الرواية حيث أنها ذكرت تفاصيله وخطواته بدءا من الخطبة، وتنظيف

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 182.

² كريمة نواديرية، وسعاد زدام، التراث الشعبي، المفهوم والاقسام، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، عدد5، جوان 2015، المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف، ميلة، الجزائر، ص6.

البيت وترتيبه وتحضير العشاء وعزم الضيوف واستقبالهم بالفرح والسرور واستعداد العروس وجعلها في أجمل حلة: "رأيتها في الغرفة غرفة الريم تنظر إلى صورتها بتمعن، تحقق باشتهاء نحو العروس الجالسة قبالتها ترتدي القندورة ذات اللون العنابي المطرزة بخيوط الذهب، وترصع رأسها بتاج من جوهر"¹ وهذا يعكس صورة المرأة الجزائرية الجميلة يوم زفافها حيث أنها تكون كالأميرات كما تحدثت الروائية عن أجواء العرس من طبخ وعشاء ورقص "كان مذاق الكسكس مع اللحم لذيذا للغاية إضافة إلى حساء الفريك والخبز والفاكهة والمشروبات الغازية"² لتشرع النساء بعد ذلك مباشرة للتصفيق والغناء "فتقوم الغرف كلها مترقصة مزغردة ومغنية"³ كل هذا يأتي واصفا بكل دقة ومصداقية طقوس ومراسيم الزواج في البلد الجزائري تحت ما يسمى بالعادات والتقاليد.

5-2- المعتقدات:

لكل بلد معتقدات يختص ويتمسك بها مهما طال الزمن وتغيرت الأجيال حيث يؤمنون بها إيماناً شديداً، تسود البلدان المثقفة وغير المثقفة الغنية والفقيرة أو بشتى أنواعها. أنها موروث شعبي عريق فتعرف، المعتقدات كالتالي: "هي كل الأمشاج الاعتقادية التي تترسب في الذهنية الشعبية، فتعتقد النفع والضرر في الأحجار المنصوبة، كما تعتقد في بعض الأشجار والحيوانات، وفي بركة الأولياء، وأضرحة الأموات منهم إذا ماتوا، وفي الجن والعمالقة والشياطين، والأرواح والظواهر الطبيعية (الرعدي، البرق، الخسوف، الكسوف...) بالإضافة إلى السحر، والطلاسم، والشعوذة، والتنبؤ بالمستقبل ومحاولة استطلاع الغيب والاعتقاد في الأعداد والكلمات، والنوم، والأحلام، والألوان والتفائل والتشاؤم... إلخ"⁴

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 139.

² المصدر نفسه، ص 139.

³ المصدر نفسه، ص 139.

⁴ كريمة نوادرية وسعاد زدام، التراث الشعبي، المفهوم والأقسام، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، عدد5، جوان 2017، ميله، الجزائر، ص 6.

واستنادا إلى التعريف السابق نجد أن الروائية سامية بن دريس قد وظفت بعض المعتقدات التي عرفت بها المجتمعات الجزائرية آنذاك منها ما اختص بهطول الأمطار كما سمته الروائية بـ"بوغنجة" وهناك ما تعلق بالسحر والشعوذة بأنواعه.

أ- **بوغنجة:** تعتبر من الطقوس القديمة التي عرفت بها الشعوب الجزائرية، يقوم بها الناس عند حلول الجفاف وقحط الأمطار وشحها وعدم نزولها في وقتها، حيث تجف الأرض وتذبل الأزهار مما يؤدي إلى نتائج وخيمة على شعبها منها: انتشار الجوع والعطش وهذا ما نشهده في الرواية حيث تقول: "قالت أمي بحزم لازم نعمل بوغنجة. رد الشيخ، إسماعيل: تخزي الشيطان، واش من بوغنجة بالحاجة زليخة؟ أمي قالت: جرب تشوف ربي حنين، دير النية وخليها على الله. دخلت أمي إلى البيت وجاءت بالنيار (عصا طويلة مشدبة تستعمل في النسيج) ووضعت في رأسه منديلا أحمر ورفعته عاليا وشرعت تغني في رجاء:

السبولة عطشانة واسقيها يا مولانا
الزرع سبل ويبس يا رب باه نعرس"¹

هذا ما قام به سكان كاف الحمام عندما حل عليهم الجفاف راغبين وطامعين في رحمة الله أن يرزقهم بالمطر لكي تنبت وتحيي الحقول والمزارع.

وبالفعل تحقق المبتغى ولبي النداء ونزلت الأمطار بمشيئة الله سبحانه وتعالى وبفضله: "في كل هذا أن الأمطار الغزيرة لبت النداء، بل لبتة بسخاء إذ لم نكد نجمع الأواني وننظف المكان حتى بدأت الزخات الأولى، فجأة ظهرت رسله المبشرة في السماء"² وبهذا تعتبر هذه الظاهرة المتوارثة عن أجدادنا والتي وظفت في أسطر الرواية بالتفصيل الممل أضفت جمالا وصبغة خاصة للرواية.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 124.

² المصدر نفسه، ص 126.

ب- **السحر والشعوذة:** هاتان الظاهرتان بالتحديد لا نزال نشهدهما حتى يومنا هذا حيث يلجأ إليه الشخص سواء أكان جاهلاً أم مثقفاً بغية تحقيق مصلحة ما أو كيد مكيدة لشخص ما رغم تحريمه الشديد في القرآن الكريم، حيث يتوعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الشديد فيقول في كتابه الجليل: **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى¹**

ويتجسد هذا في الرواية على لسان مريم واصفة عدد النساء التي شكلت طوابيرا طويلة انتظار دورها لمقابلة العرافة: "على كل حال هذا هو بابك العتيق الداكن، يكفي أن أسند ظهري إليه وأجلس عند العتبة وأنتظر دوري في الطابور الطويل"² بغية في فك عقدها، كون الطب عجز عن معالجتها وهنا نلمس جهل مريم رغم ثقافتها وتعلمها وهذا يرجع إلى نقص الإيمان وعدم التمسك بالدين.

6- الأغاني الشعبية:

تعد الأغاني من الموروثات الشعبية القديمة التي لم تنسى وتهمش، فقد بقي الإنسان حتى يومنا هذا يتغنى بالقصائد القديمة ويحيي تراثنا العتيق.

والأغنية الشعبية هي كلمات ملحنة يستحضرها الشعب في جميع المناسبات ليخلق جو الفرح والسعادة بين الأفراد وقد تعددت مفاهيم الأغنية من واحد لآخر، يقول الكزاندر كراب "هي قصيدة شعرية ملحنة، مجهولة الأصل انتشرت وشاعت بين الأميين منذ وقت طويل وما تزال حية ومستعملة"³ وفي تعريف آخر "أن الأغنية الشعبية هي الأغنية الشائعة والذائعة في المجتمع

¹ سورة طه، الآية 69.

² سامية بن دريس، المصدر السابق، ص 55.

³ أكرم رافع نصر، الأغنية الشعبية في تراث جبل العرب، موسوعة جبل العرب، د.ط، ص 7.

الشعبي، وأنها تشمل شعر وموسيقى الجماعات الريفية التي تتناول آدابها عن طريق الرواية الشفاهية دونما حاجة إلى تدوين أو طباعة¹.

وفي تعريف آخر يعتبر الغناء الشعبي: "يعتبر عمودا من أعمدة الفولكلور بصفة عامة، فهو يستمد وجوده وحياته من الشعر الشعبي في الدرجة الأولى، وإن كان يميل في بعض الأحيان إلى الشعر الفصيح، كما هو واضح في الصوت العربي الذي يُغنى في الخليج وقطر والذي يعتمد الشعر الفصيح..."²

ورأيي بعد كل هذه التعاريف أن الأغنية الشعبية هي كلمات يلحنها فرد يخرج كل أحاسيسه وشعوره في هذه الكلمات وتردها جماعة، وتتعرض أحيانا للحذف وتغييرات ليكون النص ملائما، وتنتقل هذه الأغنية من جيل إلى آخر.

1. أغنية حيزية:

هي قصيدة رثائية، كلماتها مأخوذة من قصيدة حيزية التي ألفها ابن قيطون طلبا من سعيد، يرثي فيها حبيبته حيزية التي عشقها والذي جمعهم القدر بعد معاناة كبيرة من قبل الأهل، ويحكي أنه بعد شهرين من زواجهما ذهب سعيد في رحلة عمل وبعد عودته لمح أمام باب بيته حيزية ترتدي بنوسا فظن أنه رجلا يريد الاعتداء على بيته فقتلها وكان موتها على يده، فكانت هذه الكلمات تعبيراً عن حزنه الشديد وصدق عواطفه.

ووردت قصة الريم فائقة الجمال محبوبة القرية التي كان خبر وفاتها صاعقة على قلوبهم التي قتلها زوجها الظالم، فغنت أمها زليخة هذه القصيدة ترثي صغيرتها فيها وتعبر عن مدى ألم فراقها تقول كلمات القصيدة:

عزوني يا ملاح في راسي لبنات سكنت تحت اللحد ناري مقديا

¹ أكرم رافع نصر، مرجع سابق، ص 8.

² د. محمد الطالب الدويك، الأغنية الشعبية في قطر، إدارة الثقافة والفنون، قطر، ط2، 1990، ص119.

حطوها في لكفان بنت عال الشأن زادتني حمان نفضت مخ حشايا

أحفار القبور سايس ريم القبور لا تطيحش الصخور على لينا

سكنت تحت التراب قرّة عينيا.¹

2. أغنية "جاني ما جاني": هي أغنية شعبية قديمة قام بتأديتها الفنان القدير حمدي

بناني، وهي من فن "المالوف" تنتمي إلى المدرسة الإشبيلية الأندلسية، كتبت سنة 1976، وتم تصويرها في حديقة المنتزه بأعالي سرايدي بعنابة.

جاءت هذه الأغنية في الرواية تعبيرا عن فرحة الريم ووقوعها في حب ياسين، تقول الأغنية:

"جاني ما جاني"

عن طرف جناني

خوخ وorman

وسفرجل طايب

جيت نودعها باباها غايب...²

وتعني كلماتها أنه عندما زارها الحبيب ليودعها خفية عن أبيها والناس بقوله "باباها غايب" في موسم نضج الفواكه في الصيف، لتكون هذه الأغنية رمزا عن الوقوع في الحب والاشتياق والغرام... وهذا ما عاشته الريم مع ياسين من خلال الرواية.

3. أغنية السبولة عطشانة: وهذه الأغنية تغنيها النساء حينما يحل الجفاف في بلادهم،

وتدخل ضمن عادة قديمة تتمثل في قيام النساء بطقوس احتفالية كرنفالية متعلقة بما يعرف عند

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 83.

² المصدر نفسه، ص 90.

الجزائريين بـ "بوغنجة" المشروحة سابقاً، ثم يجتمعن النساء ويغنين هذه الأغنية، ويشكين حالهن لله تعالى لتلبية نداءهن وطمعا في رزق تلك القرية بالمطر وسد عطشهم والبعض يقول أنها شرك بالله فبدل أن يتضرعون لله ويصلون صلاة الاستسقاء المفروضة في القرآن الكريم يلجؤون إلى عمل هذه الطقوس الخرافية.

السبولة عطشانة وأسقيها يا مولانا

الزرع سبل ويبس يا رب باه نعرس¹

وتعني "السبولة عطشانة" أن الأرض يبست وجفت لشح الأمطار، وقول "اسقيها يامولانا" جملة طلبية يرجون من الله أن يرويههم من بركته وخيراته، "الزرع سبل ويبس" تعني العبارة أنهم يصفون حال أرضهم وحقولهم التي يبست وهلكت من الجفاف، وجملة "يارب باه نعرس" تدل على فقرهم وحاجتهم الشديدة للطعام.

خلاصة القول أن هذا الفصل جاء ليلىم بمختلف أنواع التراث الشعبي والأنساق الثقافية، واقتباس الروائية من القرآن الكريم بشكل ملحوظ حتى أنها سمت أحد عناوين الرواية بآية قرآنية دلالة على تشبعها بالدين الإسلامي والثقافة الشعبية.

¹ سامية بن دريس، شجرة مريم، ص 124.

خاتمة

خاتمة:

في ختام البحث توصلنا إلى مجموعة من النتائج نذكرها في النقاط التالية:

توظيف الموروث الشعبي كنسق ثقافي في الرواية من طرف الكاتبة سامية بن دريس أضفى لها ميزة وذوقا خاصا وقيمة فنية وجمالية لهذا العمل من جهة، وساهم من جهة أخرى في الحفاظ على هذا الموروث من الزوال من خلال تداوله من جيل لآخر معرفين في ذلك المجتمع الجزائري العريق.

التعرف على رموز العناصر الأربعة عند باشلار ونظرتة الحديثة حولها والذي اعتبر أن الماء رمز الطهارة والتجدد والحياة، أما الهواء فيرمز للشفاء والصفاء والنقاء، ثم التراب الذي يعبر عن الموت والقبور، فالنار رمز الحرارة والمأساة.

اكتشاف فوائد وعظمة شجرة مريم وسر بركتها التي تكمن في أنها تحمل اسم مريم العذراء لهذا جعلها الله دواء للعقم وشفاء للنساء.

نلاحظ استعمال الكاتبة للغة العامية بكثرة في روايتها وهذا راجع لإبراز الأنساق الثقافية لأهل كاف الحمام المتمثلة في لغة شعبيها.

أعطى توظيف الأمثال والأغاني الشعبية بعدا فنيا للرواية وهذا يعكس ثقافة وأسلوب الكاتبة الفذ.

العنوان يحمل دلالات مضمرة عكس اسمه الظاهري الذي يوحي لدلالات أعمق في داخله.



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم، برواية ورش.

أولاً: المصادر

1- سامية بن دريس، شجرة مريم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2016.

ثانياً: المراجع

أ/ الكتب العربية:

2- أحمد مختار عمر، اللغة و اللون، علم الكتاب، القاهرة، ط2، 1997.

3- أمال عربي، الاساطير و الطقوس المتشابهة في الحضارات القديمة و الأديان، مطبوعات اكااديمية المملكة المغربية، الرباط، ط1، 1985.

4- ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

5- بسام موسى قطوس، سيميائية العنوان، مكتبة كتابة أريد، جامعة الاردن، ط1، 2001.

6- جمال طاهر، موسوعة الأمثال الشعبية، دراسة علمية، كتب عربية، دط.

7- الحاج محمد حقيق، الأمثال الشعبية في ليبيا، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1978.

8- عبد الحق بلعابد، عتبات جيران جنينيت، من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم، ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

9- عبد المعطى شعراوي، أساطير إغريقية، مكتبة الأنجلو المصرية، جزء 3 ، د ط، القاهرة، 2005.

- 10- فاضل عبد الواحد علي، عشتار و مأساة تموز، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، سورية، دمشق، ط1، 1999.
- 11- القص يوسف، تادرس الحومي، تاريخ شجرة مريم و كنسيتها، كنيسة السيدة العذراء بالمطرية، ط1، 2000.
- 12- محمود شكري الألوسي، الماء و ما ورد في شربه من الآداب، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، طريق زعير، دط، 1985.
- 13- محمود الطالب الدويك، الأغنية الشعبية في قطر، إدارة الثقافة والفنون، قطر، ط2، 1990.
- ب/ الكتب المترجمة للعربية:**
- 14- غاستون باشلار، الماء و الأحلام، تر: علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، شارع البصرة، بيروت، ط1، 2007.
- 15- غاستون باشلار، الأرض و أحلام يقظة الراحة، بحث في صور الحميمية، تر: قيصر الجليدي، دار الثقافة و السياحة، أبو ظبي، ط1، 2018.
- 16- غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، تر: نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، لبنان.
- 17- فليب بول، العناصر، تر: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016.
- 18- فيليب سيرنج، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، دمشق، شارع بور سعيد، ط1، 1993.
- 19- نورثروب فراي، تشريح النقد، تر: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1991.

ثالثا: المجالات والمقالات:

20- عبد الرحمن أحمد أروى، إعجاز الشفاء في الريق والتراب، جامعة صنعاء، كلية العلوم،

www.eajaz.org

21- شيرين معتوق الجزائري، رؤية سيميولوجية لفن المنمنمات الاسلامية في ظل العناصر

الكونية الأربعة، جدة، المملكة العربية السعودية، المجلة الأردنية للفنون، العدد 3، أبريل 2019.

22- كريمة نوادرية و سعاد زدام، التراث الشعبي، المفهوم و الأقسام، مجلة ميلاف للبحوث

والدراسات، عدد 5، جوان 2015، المركز الجامعي عبد الحفيظ بالصوف، ميله، الجزائر.

23- جدة ولاء حداد، مقال تأثير الفصول الأربعة على الحالة المزاجية، 7 فبراير، 2017.

<https://www.hiamag.com> تاريخ الاطلاع: 2023/02/04، 22:05.

ملحق

نبذة عن حياة الكاتبة:

سامية بن دريس من مواليد فرجيوة بولاية ميلة سنة 1971، تابعت دراستها الأولية بمسقط رأسها ثم انتقلت الى جامعة قسنطينة أين تحصلت على شهادة الليسانس في الأدب العربي سنة 1994، ثم تحصلت على شهادة الماجيستر من جامعة جيجل سنة 2014، تعتبر قلما ابداعيا واعدة في مجال الرواية، حيث حظيت روايتها بعض الدراسات الأكاديمية على مستوى الجامعات الجزائرية من بين أعمالها واصداراتها نذكر:

رائحة الذئب سنة 2015.

شجرة مريم سنة 2016.

أطياف شهرزاد سنة 2016.

بيت الخريف سنة 2017.

ملخص الرواية:

تصف رواية شجرة مريم لسامية بن دريس حجم المعاناة التي عاشتها المرأة الجزائرية وسط مجتمعها مقيدة بعاداتهم وتقاليدهم، مشاهدة كل أشكال العنف خاصة في فترة العشرية السوداء.

قسمت الرواية روايتها الى ثلاث فصول: الفصل الأول سمته وعنوانه برسائل ما بعد الغياب: تناولت فيه مجموعة من القضايا المهمة التي تسود الكثير من المجتمعات مثل: قضية البطالة، الهجرة، الفساد، وقضية تهमيش المرأة مع تناول بعض من الطقوس والمعتقدات السائدة آنذاك كما سردت لنا في أسطر الرواية الأولى حياة البطلة مريم وسط عائلتها وأهلها وقريتها.

أما الفصل الثاني والموسوم ب: الصيف عصر النار تناول هذا الفصل مظاهر العنف بشتى أنواعه الممارس على النساء في فترة العشرية السوداء كما تناول ظاهرة الذهاب واللجوء الى الساحرات بغية العلاج أو تحقيق مصلحة ما وتجسد هذا داخل حمام ل" مريم البصيرة " في قرية كاف الحمام والذي كان ملجأ لكل النساء مطلقات، أرامل، مغتصابات، هاربات... الخ ما يصف جهل هذه الفئة من النساء. كما لا ننسى المجازر والدمار والخراب الذي قامت به الجماعات الارهابية في المجتمع الجزائري.

ثم تختم روايتها بالفصل الثالث الموسوم ب: توابل من أجل شاه بندر التجار، هذا الفصل بالتحديد أعاد قيمة المرأة الجزائرية و دورها في المجتمع وهذا يتجسد في شخصية البطلة "مريم" والتي أصبحت تعمل في احدى المطاعم، وتمر الأيام لينتقم الله عزوجل لها وللحامية . حيث أن ابن شاه بندر الوحيد مات في حادث مرور مروع وبهذا تفتح صفحة جديدة مع أولادها وتعيش حياة كريمة ومختلفة عن ماضيها المأساوي المليئ بالآلام والأحزان.

ومختصر القول أن رواية شجرة مريم جاءت لتصف العنف والمعاناة الذي عاشه المجتمع الجزائري في فترة العشرية السوداء في التسعينات، وتبين أهمية هذه النبتة المباركة التي تشفي كل عقيم بفضل الله وعظمته وتسهل الولادة وعملية الطلق عند المرأة.

الفهرس

**** الفهرس ****

مقدمة أ-ج

الفصل الأول: الأنساق الأنثربولوجية بين العناصر الأربعة وفصول السنة

أولاً: الخريف عصر التراب..... 06

أ/ عنصر التراب..... 06

ب/ فصل الخريف..... 09

ج/ الخريف عصر التراب في رواية شجرة مريم..... 11

ثانياً: الصيف عصر النار 12

أ/ عنصر النار..... 12

ب/ فصل الصيف..... 14

ج/ الصيف عصر النار في رواية شجرة مريم..... 16

ثالثاً : الشتاء عصر الماء..... 17

أ/ الماء رمز الحياة..... 18

ب/ الماء وسيلة تطهير وتجدد..... 21

رابعاً: الربيع عصر الهواء..... 23

الفصل الثاني: الأنساق الثقافية الأخرى

1-سيمياء العنوان في رواية شجرة مريم لسامية بن دريس..... 28

2- سيميائية العناوين الداخلية (الفرعية)..... 31

2-1- رسائل ما بعد الغياب..... 32

- 33.....1-1-2 أنثى العنكبوت
- 34.....2-1-2 رحيق مالح
- 34.....3-1-2 هجرة طير
- 35.....4-1-2 وليمة الموتى
- 35.....5-1-2 شارع الخليج
- 36.....6-1-2 واعتدت لهن متكاً
- 36.....7-1-2 هدى الزين
- 37.....2-2 الصيف عصر النار
- 37.....1-2-2 رسالة رجاء 1 2 3
- 38.....2-2-2 عطور
- 39.....3-2-2 الخريف عصر التراب
- 39.....4-2-2 كائنات خفاشية
- 39.....5-2-2 الشتاء عصر الماء
- 40.....6-2-2 الصيف عصر النار
- 40.....7-2-2 الربيع عصر الهواء
- 40.....8-2-2 خارج الفصول
- 40.....3-2-2 توابل من أجل شاه بندر التجار
- 42.....1-3-2 هدى الزين
- 42.....2-3-2 وليمة الموتى

- 3- دراسة غلاف رواية شجرة مريم.....43
- أ/ اسم المؤلف.....44
- ب/ العنوان.....44
- ج/ الصورة واللون.....44
- ج/1- الشجرة ذات الغصون السوداء.....44
- ج/2- السماء الخضراء.....45
- ج/3- الأزهار الوردية.....45
- ج/4- دار النشر.....46
- 4- الأمثال الشعبية.....46
- 5- العادات والمعتقدات.....49
- 5-1- العادات.....49
- 5-2- المعتقدات.....50
- 6- الأغاني الشعبية.....52
- خاتمة.....57
- الملاحق.....59
- قائمة المصادر والمراجع.....63
- الفهرس.....67-69

ملخص

تناولنا في بحثنا المعنون بـ"الأنساق الأنثربولوجية في رواية شجرة مريم لسامية بن دريس، محاولين إبراز واستخراج أهم الأنساق الأنثربولوجية المتغلغلة داخل الرواية من خلال الكشف عن العلاقة بين الفصول وعناصر الحياة الأربعة معرفين اياهم عند مختلف النقاد مثل غاستون باشلار ونورثروب فراي لنقف بعد ذلك عند بعض الأنساق الأخرى التي وردت في الرواية كالعادات والمعتقدات والأمثال والأغاني الشعبية، التي كانت ولا تزال تسود المجتمعات الجزائرية خاصة وجاء فصل بحثنا الأول بعنوان: الأنساق الأنثربولوجية بين العناصر الأربعة كما ذكرنا سابقا حيث ركزنا فيه عن العلاقة الموجودة بين كل عنصر والفصل الذي ينتمي اليه فالصيف يرتبط بعنصر النار، أما الشتاء بالماء... الخ.

والكشف عن رمزية كل عنصر وفصل على حدى موظفين في ذلك بعض الأساطير القديمة لنخوض بعد ذلك مباشرة في تبيان رمزية هاته العناصر في الرواية من جهة أخرى.

ليأتي الفصل الثاني والموسوم بأنساق ثقافية أخرى تناولنا فيه دراسة تفصيلية لعنوان الرواية وغلافها ثم أبرزنا حضور التراث الشعبي بقوة من أمثال وأغاني شعبية وعادات ومعتقدات شارحين اياهم بدقة.

لينتهي المطاف بنا الى خاتمة ذكرنا فيها مختلف النتائج التي توصلنا اليها على شكل نقاط.

الكلمات المفتاحية:

غاستون باشلار، العناصر الأربعة، سيميائية العنوان، نورثروب فراي، رمزية التراب، رمزية الهواء، رمزية الماء، رمزية النار، الأمثال الشعبية، العادات والمعتقدات... إلخ.